

الفصل الأول

فجالتهم

obeikandi.com

الفصل الأول شعر

صورة الخمر في العصرين الجاهلي والإسلامي:

بالرغم من أن شعر الخمر قديم في شعرنا العربي إلا أن نقادنا الأقدمين لم يفرّدوا له باباً أو فناً مستقلاً بل غلب عليهم الحاقه ببعض الفنون الأخرى^(١).

أما عن صورة الخمر قبل أبي نواس فإن العرب في جاهليتهم عرفوا الخمر كما عرفتها الأمم القديمة من حولهم. فاليونان جعلوا للخمر إلهاً هو باخوس^(٢) في حين كان العرب يشربون الخمر على ما يذكر ابن قتيبة^(٣) لتزيدهم جرأة وشجاعة. وإلى هذا يشير حسان بن ثابت:

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسدأ ما ينههها اللقاء^(٤)

ومن شغفهم بالخمر وضعوا لها نحواً من مئة اسم^(٥) كما تعددت مصادر الخمر عندهم^(٦) وقد ساعد وجود بعض الواحات الخصيبة كالطائف ويثرب على انتشار الخمر في بلاد العرب^(٧) كما كان التجار من نصارى ويهود يرحلون بخمورهم إلى الأعراب في بواديهم^(٨) وكذلك كان العرب يرحلون إلى العراق حيث قامت إمارة الحيرة المشهورة بخمورها وأديرتها ومواخيرها^(٩) وإلى بلاد الشام الغنية ببيساتينها وكرومها حيث قامت إمارة الغساسنة وعاصمتها جلق، وقد سمي لنا «ابن فضل الله العمري» جملة من أديرة وحنانات الشام^(١٠).

وهكذا ندر وجود الشاعر الجاهلي الذي لم يقل في الخمر شعراً فهذا المهلهل الذي يعتبر من

(١) شرح ديوان الحماسة ٣١/٢.

(٢) معجم الأساطير (ديونيسوس).

(٣) الأشربة لابن قتيبة ص ٣٨.

(٤) ديوان المعاني ٣١٤/١.

(٥) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٦٦.

(٦) حلبة الكميت ص ٧.

(٧) العقد الفريد ٣٤٦/٦.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ٧٩ و ٨٨.

(٩) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٧٣.

(١٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٣٣١ و ٣١٦.

أقدم شعراء الجاهلية باعتباره أحد شعراء حرب البسوس (٤٩٤-٥٣٤)^(١) يحرم الخمر على نفسه كإحدى اللذات، حتى يأخذ بثأره من قاتل أخيه كليب. ومثله امرؤ القيس الكندي، أحد شعراء النصف الأول من القرن السادس الميلادي يحل لنفسه الخمر بعد أن أدرك بثأره من بني أسد:

حَلَّتْ لِي الخمر وكنت امرءاً عن شربها في شغلٍ شاغلٍ^(٢)

أما أوس بن حجر فقد جعل الخمر في درجة واحدة مع أعلى القيم الاجتماعية والمآثر الأخلاقية من جود ونجدة وشجاعة وذلك في رثائه فضالة بن كعدة. حيث يقول^(٣):

ليكك الشُّرْبُ والمُدَامَةُ والفتيانُ طُرّاً وطامعُ طَمَعَا
وذاتُ هِذْمٍ عَارٍ نواشِرُهَا تُصِمُّتُ بالماءِ تُولِباً جَدَعَا
والحيُّ إذ حاذروا الصبّاحَ وَقَدْ خَافُوا مُغَيِّراً وسائراً تَلَعَا

ونمضي مع الجاهليين فإذا بهم يزخرفون شعرهم الخمري وينمقونه بشتى التصاوير والتشابه الطريفة، فهذا علقمة الفحل، وهو معاصر لامرئ القيس يشبه كأس الخمر بالطيب في طول عنقه، ويأنه موسى بالخطوط وهو مصنوع من فضة، مكسو بالريحان ويضوع منه الطيب، وعليه مصفاة من سائب الكتان:

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مَفْدُمٌ بِسَبِّ الكِتَانِ مَلْشُومٌ^(٤)
أبيض أبرزه للضح راقبه مُقَلَّدٌ قُضِبَ الرِّيحَانِ، مَفْعُومٌ

وهذا أبو ذؤيب الهذلي يشبه صفاء الخمر بمثل صفاء عين الديك ولونها بالدم:

وما ان فَضْلَةٌ من أذْرَعَاتٍ كعين الدِّيكِ أَحْصَنَهَا الصُّرُوحُ^(٥)
مصْفَقَةٌ مُصَفَّاءُ عَقَّارٌ شَامِيَةٌ إِذَا جَلِيَتْ مَرُوحٌ

ومثله امرؤ القيس^(٦) أيضاً.

كذلك عنى الجاهليون بآنية الخمر فكأس عترة زجاجة صفراء مخططة إلى جنبها إبريق من فضة عليه مصفاة:

(١) تاريخ العرب العام، لسيد يو، ص ٥٢.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٤/١.

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٥ ط. صادر.

(٤) الموشح للمرزباني ص ٣٦٦. أشعار الستة الجاهليين ص ١٥٦.

(٥) ديوان الهذليين ٦٩/١ ط. دار الكتب. (٦) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٩٥.

ولقد شَرْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِزَجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ قُرْنَتْ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مَقْدَمِ
وأما المنخل اليشكري فقد كان يشرب بالكأس الكبير والصغير:

ولقد شَرْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيرِ^(١)
ولعل ليبدأ كما يقول «أبو هلال العسكري» أَوَّلَ مَنْ شَبَّهَ إِبْرِيْقَ الْخَمْرِ بِالْأَوْزِ فِي طَوْلِهِ مِنْ غَيْرِ
أَنْ يَذَكَرَ الْخَمْرَ:

تَضَمَّنُ بِيضاً كَالْأَوْزِ ظُرُوفُهَا إِذَا تَأَقَّوْا أَعْنَاقَهَا وَالْحَوَاصِلَ^(٢)
وأيضاً لم يهمل الجاهليون أفاعيل الخمر في نفوس شاربها، فهي ترد الشيخ إلى غلام إذا شرب
منها خمساً كما يقول المنخل اليشكري:

كَأْسٌ إِذَا مَا الشَّيْخِ وَالسِّيَ بِهَا خَمْساً تَرْدِي بَرْدَاءِ الْغُلَامِ
وهي تحوّل الشحيح إلى جواد كريم وتنسيه همومه كما يقول عمرو بن كلثوم:
تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أَمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مَهِينَا
هذا، وتعتبر خمرية عدي بن زيد التي يستهلها بقوله:

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّوحِ سَبْحَ يَقُولُونَ لِي أَلَّا تَسْتَفِيْقُ^(٣)
مع خمريات الأعشى نموذجاً لمن جاء بعدهما وأنشأوا قصائد في الخمر^(٤) فبين الشاعرين
تشابه في الأسلوب كما يقول نلينو^(٥) وفي هذه الخمرية يقول عدي:

ثُمَّ نَادَوْا عَلَى الصُّبُوحِ فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

(١) الشعر والشعراء ١/٣٦٥.

(٢) ديوان المعاني ١/٣١١.

(٣) ديوان عدي بن زيد ص ٧٦.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية «عدي بن زيد».

(٥) تاريخ الأدب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص ٧٤.

قَدَّمْتُهُ عَلَى سُلَافٍ كَعِينِ الدِّ يَكِ صَفَى سُلَافِهَا الرَّأُوقُ^(١)
مُرَّةً قَبْلَ مَزْجِهَا فَإِذَا مَا مُزِجْتُ لَدَّ طَعْمُهَا مِنْ يَذُوقُ
وطفًا فوقها ففقايع كال ياقوتِ حُمُرٍ يَزِينُهَا التُّصْفِيقُ

في هذه الأبيات رقة حضارية واضحة مع المحافظة على الرصانة البدوية هذا إلى اختراع الشاعر ما يحدثه مزج الخمر بالماء من فقايع تطفو على سطح الكأس . وهو معنى أكثر من ترداده العباسيون^(٢) :

على أن أهم ظاهرة فنية في الشعر الخمري الجاهلي تدعو إلى الالتفات هي القصة الخمرية أو وصف المجلس الخمري ومن صورته قبل الأعشى قصيدة للأسود بن يعفر، وهي من مختارات المفضل الضبي^(٣)، ضمنها وصفاً لقصور آل لخم وللنعم الذي كان يتمتع به الأسود في ظلال المناذرة وغدوه على بائع الخمر وبذله المال في سبيل لذته مع وصفه لساقبي الخمر الغلام المقرط الاذن الأغن الصوت المطلي الأنامل باللون الأحمر وقد علق لؤلؤتين في أذنيه هذا إلى وصفه للقيان البيض كأنهن البدور بنظراتهن النفاذة وأصواتهن الخفيضة . . . !

أما الأعشى فشاعر الخمر الأول في العصر الجاهلي غير منازع وعند المحدثين واضح جرثومة الفن الخمري في الشعر العربي^(٤) وعند الأقدمين له فضل السبق في هذا الفن^(٥) وهو أشعر الناس إذا طرب^(٦) أي إذا شرب الخمر ووصفها، أو إذا سكر^(٧) وقد غطت شهرته بالخمر على روائع فنونه الأخرى فقد كانت فتته بالخمر عظيمة حتى أربى ما قاله فيها على جميع ما قاله الجاهليون^(٨) ومن اختراعاته أنه أدخل الوصف الخمري في المنهج الأدبي لمدائحه وقد عدّ النقاد المحدثون وصفه لمجالس الخمر أشبه بوصف شعراء العصر العباسي زمن هارون الرشيد^(٩) وهكذا وجدنا خمريات مستغرقة في لون الخمر وصفائها ومزاجها ودنانها وزقاقها وسقائها والخمارين مع الإشارة أيضاً إلى القيان والمغنين والندمان وما يعترى شاربها من نشوة وما يسري في أعضائه من فتور، على أن أهم

(١) الراووق: المصفاة.

(٢) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٧٦.

(٣) المفضليات ٤٤ : ٢١٥.

(٤) الروائع لأفهام البستاني رقم ٣١ ص ٣٢.

(٥) الشعر والشعراء ص ١٨، ديوان المعاني ١/ ٣١٩ - ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٦) الأغاني ١٠٨/٩.

(٧) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٥٦.

(٨) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٩) تاريخ الآداب العربية للينبو ص ٧١.

شيء جعل الأعشى يقترب من ذوق العباسيين هو اقتران خمرياته بالمجون وتفردته بالقصة الخمرية، هذا من غير أن تستقل الخمرية عنده بقصيدة مفردة مثله في ذلك مثل معظم الجاهليين إلا أن القسم الخاص بالخمير من مطولاته يكاد يستوفي كل شروط الخمرية المستقلة كما يتضح لنا ذلك في مقدمة مدحته لأحد أدواء اليمن هو سلامة ذوفائش^(١) حيث يسرد الأعشى مغامرة خمرية تبدأ بالغدو على حانة بالخباء وتنتهي بالرحيل بعد أن أصاب وصاحبه من الخمر ما أفقدهما اتزانهما ووقارهما، هذا إلى وصف الخمار الأعجمي أزرق العينين الحاذق بصنعة الحريص على خمرة المغالي في ثمنها الكثير المساومة. وأما الخمر فقد تخير لها عنباً من بكار القطاف وقد أودعها خابية ضخمة سوداء مطلية بالقار فمكثت هناك مدة حتى تناقصت، فبدت كأنها حوصلة الرأل فتقلب كتمتها إلى حمرة... وأخيراً ينهض الأعشى وصاحبه، وقد استخفتها النشوة حتى خرجا عن أطوارهما، إلى مطاياهما التي باتت على باب الخباء بأكوارها وألبادها.

وفي خمريات الأعشى جانب لا نلمسه في خمريات غيره من الجاهليين هو هذا الحب للخمير إلى درجة توشك أن تكون تقديساً^(٢) بل أن لهجة التقديس تتردد في خمرياته وهي لا شك بقايا طقوس دينية لبلاد ما بين الرافدين MESOPOTAMIA^(٣) من ذلك قوله يصف المراسيم التي تتلى عند تدفق الخمر من الدن بعد البزل^(٤):

إِذَا بُزِلَتْ مِنْ دَنِّهَا فَاحَ رِيحُهَا وَقَدْ أُخْرِجَتْ مِنْ أَسْوَدِ الْجَوْفِ أَدْهَمَا
لَهَا حَارِسٌ مَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا إِذَا دُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمَزَمَا

يشبه الأعشى ثقب سداد الدن بعملية الذبح في المعابد وما يصاحبها من طقوس دينية. والحقيقة أن الأعشى يكاد يكون قد ألم بجميع أحوال الخمر وصفاتها من لونها ومزاجها ووصف مجالسها وقيانها وندمائتها وسقاتها وشرابها وخماريها ونشوتها هذا إلى أسماء البلاد التي كان يعاقر فيها الخمر أو ترد منها، بل لقد وجدناه يملأ إحدى قصائده بالألفاظ الفارسية كدليل على المامه ببلاد فارس أو الثقافة الفارسية حيث كان كثير التردد على الحيرة ملتقى الثقافة الفارسية، بالثقافة العربية^(٥)، كما يذكر نسوة غير عربيات.

وإضح إذن من هذا العرض لخمريات الجاهليين فضل السبق للأعشى على من جاء بعده من

(١) ديوان الأعشى ص ٦٩.

(٢) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص ٣٧٧.

(٣) العصر الجاهلي لشوقي ضيق ص ٣٥٥.

(٤) حياة الشعر في الكوفة ص ٢٣٢.

(٥) ديوان الأعشى ص ٢٩٣.

شعراء الخمر في كثير من معانيهم وصورهم^(١) . . . !

.....

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي وجدنا العرب يتأقنون في المطاعم والمشارب والملابس والمباني والفرش والآنية وسائر الماعون والحُرثي^(٢) والولائم ولباس الأعراس مما ساعد على استفحال عادة شرب الخمر وكان الثراء العريض يعم فئات واسعة من العرب بعد أن ملكوا فارس والروم^(٣) فازدحمت الحواضر العربية بالرقيق الجوّاري مما أدى إلى ظهور الغناء والمغنين وخضوع العرب لمختلف المؤثرات الأجنبية من فارسية ورومانية وسريانية ويونانية . كذلك أدى التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ومعاملة المجوس معاملة أهل الذمة^(٤) إلى الإبقاء على أديرتهم وكنائسهم وبيعهم وحنائهم وتجارتهم ومنها تجارة الخمر التي كانت رائجة حتى كانت بعض الجوّاري والقيان يزاولنها^(٥) وهكذا أخذ الناس من مختلف الطبقات يعاقرون الخمر ومنهم الشعراء وفي كل إقليم نجد منهم الكثيرين على أن الذي يهمننا أن شعر الخمر الإسلامي كان يتردد بين السير على سنن الجاهليين وبين النزوع إلى الجدة والطرافة، لكن التقليد كانت له الغلبة، فقد ظلت الخمر حتى أواخر العصر الأموي ترد إما في مقدمات المدائح أو في ثانيا القصائد الأخرى بين جملة من الموضوعات تشتمل عليها القصيدة، هذا إلى أن معظم الشعراء لم تقم شهرتهم على شعر الخمر وإنما على الفنون الأخرى من مديح وهجاء ورثاء وغيرها، كما كان للخصومة السياسية بين مختلف الأحزاب والخصومة القبلية بين العدنانيين والقحطانيين أثرهما الكبير في تحديد الخطوط العامة لمسيرة الشعر العربي في هذا العصر، مما أدى إلى تأخر استقلال الخمر بقصيدة مفردة إلى أواخر العصر وإلى تأخر القصة الخمرية بل ضمورها في الخمر الإسلامية^(٦) وهكذا ظل الأخطل شاعر الخمر الأول في العصر الأموي - لإدمانه على شربها ولأنه كان يرى فيها مصدر إلهامه الشعري^(٧) - ينهج على منوال الأعشى مع قلة الابتكار والإبداع، من اصطناعه الخمر في مقدمات مدائحه . ولعله دل العباسيين ومعه الأعشى على هذا الصنيع هذا إلى اختفاء لهجة التحدي من خمرياته

(١) معجم الشعراء ص ٤٥٩، وديوان المعاني ٣٢٨/١، والشعر والشعراء ص ١٨، وسرقات أبي نواس ص ٦

و ص ٩٢-٩٣ .

(٢) الحرثي : أثاث البيت .

(٣) مقدمة ابن خلدون / ١ - ٢٢٣-٢٢٤ .

(٤) الأغاني ٢٥٤/١١ ط . الثقافة .

(٥) كتاب الخراج ص ٥٠ .

(٦) تطور الخمرات في الشعر العربي لجميل سعيد ص ١٧٢-١٧٣ .

(٧) تاريخ الأدب العربية لتليو ص ١٣٥، وتطور الخمرات في الشعر العربي ص ١٥٥ .

حين لم يستطع المداحون المسلمون أن يصطنعوا الخمر في أماديحهم بالرغم من أنهم وجدوا في التسامح الديني وفي التفتح على الحضارات والثقافات الجديدة ما شجعهم على الإدمان على شرب الخمر ساخرين من كل وازع مزرين في أحيان غير قليلة بالقيم الدينية غير عابئين^(١) بسطان . وهكذا وجدنا الأخطل ، وهو النصراني الذي لا يجد حرجاً في معاقرة الخمر يثير جدلاً بين الجاهلية التي كان يعاقر فيها الناس الخمر معاقرة طبيعية دون عقيدة تفرض عقوبة ، أو تورث ماثمة وبين الإسلام بمحاذيره ونواهيه ، فقد سكر الأخطل حتى مات على دين الجاهلية مدة ثلاثة أيام ، حتى إذا صحا مع شربه استعادوا حياة من غير حشر ولا قيامة ، وإنما حياة تناولتهم فيها السنة العاذلين واللائمين^(٢) :

شَرِبْنَا ، فَمُتْنَا مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً	مَضَى أَهْلُهَا ، لَمْ يَعْرِفُوا مَا مُحَمَّدٌ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا تَنَبَّهْتُ	حُشَّاشَاتُ أَنْفَاسٍ أَتْتَنَا ، تَرَدَّدُ
حَيَاتِنَا حَيَاةً ، لَمْ تَكُنْ مِنْ قِيَامَةِ	عَلَيْنَا ، وَلَا حَشْرِ ، لِئَابِهِ مَوْعِدُ
حَيَاةٍ مِرَاضٍ ، حَوْلَهُمْ بَعْدَمَا صَحَّوْا	مِنَ النَّاسِ شَتَّى : عَادِلُونَ ، وَعُودُ

والأخطل شديد الشغف بالخمر إلى درجة الهيام لذلك غصت خمرياته بأوصافه لرفاق الخمر المملوءة المرتفعة القوائم مصوراً إياها برجال من السودان ، ويديب الخمر في العظام ، وبمزجها بالماء ونسبتها إلى مواطنها الأولى ولعل قوله الذي ينم به عن الهيام بالخمر :

رَبَّتْ ، وَرَبَا فِي حِجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ يَظُلُّ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَّلُ^(٣)
لا يخلو من طرافة وجدة ومثله قوله أيضاً :
فَصَبَّوْا عُقَاراً فِي إِنْءٍ ، كَأَنَّهَا - إِذَا لِمَحْوَاهَا - جُدْوَةٌ - تَتَأْكَلُ

فإنه غاية في الجدة والابتكار حين شبه الخمر وهي تصب في إنائها بجذوة النار الملتهبة فهو معنى لم يسبق إليه ولعل أبا نواس وغير أبي نواس أعادوه في خمرياتهم .

أما غير الأخطل من شعراء الخمر فهم كثير في هذا العصر . منهم حارثة بن بدر الغداني الذي لم يكن يكثر لعائب على شرب الخمر وحده أو مع نديم مسعد مع تهكم لاذع بالحج^(٤) ،

(١) الأغاني ٣٩٤/٨ ط . الدار ، ١١ / ٢٤١-٢٥٢ ط . الثقافة .

(٢) شعر الأخطل ٧٣٢/٢ .

(٣) ابن مدينة : العالم بالقيام عليها ، تركله : همزه برجل المسحاة .

(٤) الأغاني : ٣٩٤/٨ ط . الدار .

والاقيشر الشاعر الكوفي الماجن الذي يستنكر مساءلة الشرطي له عن شربه الخمر وهو الذي يدفع ثمنها:

إنما نشرب من أموالنا فسلوا الشرطي ما هذا الغضب^(١)

ويذكرنا الاقيشر في سخريته اللاذعة من أهل التقى ومن الدين نفسه حين يصف نديمه بأنه لم يستطع القيام من شدة سكره فيقرن صلاة الظهر بصلاة العصر، بأبي نواس، يقول الاقيشر:

قلت قُمْ صَلِّ فَصَلَّى قَاعِدًا تَغَشَّاهُ سَمَادِيرُ السَّكْرِ^(٢)

قَرَنَ الظَّهْرَ مَعَ العَصْرِ كَمَا تَقْرُنُ الحِقَّةُ بِالْحَقِّ الذِّكْرُ^(٣)

تَرَكَ الفَجْرَ فَمَا يَقْرُؤُهَا وَقَرَا الكَوْثَرَ مِنْ بَيْنِ السُّورِ

على أن أهم شعراء الخمر في العصر الأموي هما الوليد بن يزيد وأبو الهندي .

أما الوليد بن يزيد فبتأثير حياته الماجنة وتأثره بكل من مدرسة الحجاز ومدرسة الكوفة الشعريتين استطاع أن يدفع الخمرية إلى الأمام خطوات بعيدة أولها الاستقلال بها في قصيدة مفردة . وتحت تأثير الغناء الذي كان يتقنه اتقاناً بعيداً^(٤) تطور شعره ومنه الخمر إلى أن أصبح في مجمله مقطوعات قصيرة في بحور الشعر الخفيفة^(٥)، وهكذا كانت خمرياته ومعها غزلياته ينظمها إما بوحى الغناء أو من أجل الغناء تنفيساً عما كان يجد من ظلم عمه أو سلواناً عن حبه العاثر قبل موت حبيبته ويعده . وقد استغرق في خمرياته رغم قصرها في معظم صفات الخمر من لونها وورقتها وشعاعها وتطاير حبيها عند المزج وكذلك رائحتها وفعالها في أعضاء جسم الإنسان :

وصفراء في الكأس كالزعفران سبها التَّجِيبيُّ من عَسْقَلانِ^(٦)

تُرِيكَ القِذَاءَ وَعَرَضُ الإِنَا ءِ سِتْرُ لَهَا دُونَ لِمَسِ البَنَانِ

لَهَا حَبِّبٌ كَلَّمَا صُفِّقَتْ تَرَاهَا كَلْمَعَةَ بَرَقِ يَمَانِ

(١) الأغاني ٢٤١/١١ ط . الثقافة .

(٢) السمادير: شيء يترأى للإنسان من ضعف بصره عند السكر .

(٣) الحقة من الإبل : الداخلة في السنة الرابعة .

(٤) الأغاني ٤٤/٧ ط . الثقافة .

(٥) المصدر السابق نفسه ٣٢/٧ وما بعدها ط . الثقافة .

(٦) ديوان الوليد بن يزيد ص ٥٧، مجلة المجمع العربي بدمشق - المجلد الخامس عشر - الجزء الأول - دمشق

١٩٣٧م، وص ١٢٤ شعر الوليد بن يزيد، تحقيق حسين عطوان - عمان سنة ١٩٧٩م .

وهكذا عدت خمريات الوليد بن يزيد جديدة على عصره ومعاصريه حتى أقامه النقاد قديماً وحديثاً الأب الروحي لكل مَنْ قال بعده في الخمر يقول أبو الفرج: (وللوليد في ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم وسلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررهما في عدة مواضع منه . . .)^(١).

ولعل رائعته التي تبدأ بهذا البيت:

إِصْدَعْ نَجْجِي الْهَمُومِ بِالطَّرْبِ وَأَنْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ^(٢)
جديرة بأن تلحقه بشعراء الخمر العباسيين حتى نسبت بعض المصادر هذه الخمرية البديعة إلى أبي نواس^(٣) لأن فيها روحه ومذهبه وحبكته الشعرية وموسيقاه وبعض مصطلحاته الفنية أيضاً.

أما أبو الهندي، عبدالله بن ربيعي بن شيبث بن ربيعي الرياحي وقيل اسمه غالب^(٤)، فهو من شعراء العرب الذين هاجروا إلى خراسان ثم أقام بسجستان في «كوي زيان» أي سكة الخسران وكان يحيا حياة شاذة غريبة عاشت للخمر والفسق والضياع كما يدل على ذلك شعره^(٥) وهو من أكثر الشعراء فتنة بالخمر إلى درجة ظن معها أنه أول مَنْ وصفها من شعراء الإسلام^(٦) فقد كان يرى في الخمر تمام حياته النفسية والجثمانية، لذلك تفتن أبو الهندي في عرض عشقه للخمر في العديد من الصور والمعاني المبتكرة، وهو يصور نفسه طفلاً يرضع من در الخمر^(٧):

رَضِيعُ مَدَامٍ، فَارِقَ الرَّاحِ رُوحَهُ فَظَلَّ عَلَيْهَا مُسْتَهْلُ الْمَدَامِ
أَدِيرَا عَلَيَّ الْكَأْسَ إِنِّي فَقَدْتُهَا كَمَا فَقَدَ الْمَفْطُومُ دَرَّ الْمَرَاضِعِ
وهو يجعل ختام حياته مع الخمر أيضاً فيطلب أن يلتحف إذا مات بورق الكرم لتكون معصرة خمرة في قبره من غير أن يعدم الرجاء في المغفرة عند الله^(٨):

يَا خَلِيلِي اجْعَلْ لِي كَفْنًا وَرَقَ الْكِرْمِ وَقَبْرِي الْمَعْصِرَةَ
إِنْسِي أَرْجُو غَدًا مِنْ خَالِقِي بَعْدَ شُرْبِ الرَّاحِ حُسْنَ الْمَغْفِرَةَ

(١) الأغاني ٢٠/٧ ط. الدار. (٢) ديوان الوليد بن يزيد ص ٣٤.

(٣) الأغاني ٢٠/٧ ط. الدار، ديوان أبي نواس ص ٢٤٨ ط. آصاف.

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٣٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٣٨.

(٦) الأغاني ٢٠/٢٩٣.

(٧) قطب السرور في أوصاف الخمور ص ١٢٦. (٨) محاضرات الأدباء ١/٤١٤.

وقد بلغ غرام أبي الهندي بالخمير أن جعلته يتخلى عن بعض عاداته المعيشية، وتقاليده القومية، يذكر «ابن عبد ربه» أن أبا الهندي ضاف إلى راع يسمى سالماً فسقاه قدحاً من لبن فكرهه وقال^(١):

سُغِنِي أبا الهندي عن وطب سالم أباريق كالغزلان بيض نحوورها^(٢)
مُفَدِّمَةٌ قَرَأَ كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ كِرَاكِ أَفْزَعَتْهَا صَقُورُهَا^(٣)
فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى كَانَهَا أرى قريةً حولي تزلزل دورها

فأبو الهندي قد سبق العباسيين إلى ما نسميه بالشعوبية الحضارية حين سخر من سقاء اللبن البدوي مفضلاً عليه أباريق الخمير بهذا يكون أبو الهندي مكماً للوليد بن يزيد في فن الخمير على ما بينهما من اختلاف واضح في المعيشة وفي الطبقة الاجتماعية حتى أن النقاد الأقدمين ومعهم بعض المحديثين يرون أنهما كانا مورداً نهل منه المتأخرون^(٤).

بعد هذا العرض السريع لخمريات الجاهليين والإسلاميين نستطيع القول إن هذه الخمريات لم تضع أمام أبي نواس نماذج يحتذيها فحسب وإنما استطاعت أن تضع أمامه بذور القصة الخمرية والاستقلال بقصيدة الخمير عن غيرها من الموضوعات الأخرى، وابتكار مصطلحات خمرية جديدة والوصف البديع لمجالس الخمير بعناصرها البشرية والمادية، هذا إلى عشق للخمر نفسها تجاوز حدود الإقبال وحب المعاقرة. كل هذا جعل بعض الجاهليين كالأعشى وبعض الإسلاميين كأبي الهندي والوليد بن يزيد أوثق وشيجة بأبي نواس من بعض معاصريه من شعراء الخمريات. خمريات أبي نواس:

تبيناً من العرض السابق لفن الخمريات، في العصرين الجاهلي والإسلامي كيف أن أبا نواس، كان مسبوqاً إلى هذا الفن، بصور من الإبداع بلغت من الجمال والروعة حد اتهام أبي نواس نفسه بالأخذ عن سبقه^(٥) ومع هذا فقد اعتبر أبو نواس، عند النقاد، الأقدمين والمحدثين على

(١) العقد الفريد ٦/٣٤٢.

(٢) الوطب: سقاء اللبن.

(٣) مقدمة: موضوع عليها الغدام وهو مصفاة توضع على فم الإبريق.

(٤) الأغاني ٧/٢١، و ٢٩٤/٢٠ ط. الثقافة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢.

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٤٢.

السواء أستاذ فن الخمرية غير مدافع كماً وكيفاً^(١)، حتى أن بعض الكُتّاب يعتبر فن الخمرية مجلى لشخصيته من حيث أنه أجرى شاعريته في الخمر^(٢) وإن حياته دارت على الخمر والحب، بل إنه أكثر كلفاً بالخمر منه بالحب^(٣)، حتى لقد زعم بعضهم أنه ربما كانت أشعاره في الخمر تُربي على ما قالته الأمم الأخرى فيها، وذلك قياساً على رجحان كفة العرب في هذا الفن على كفة جميع الأمم والحقيقة أنه قد يصعب أن نجد كاتباً تعرّض لدراسة شعر أبي نواس لا يحلّ خمرياته المحل الأول من بين فنون شعره^(٤) وكذلك يرى طه حسين، أن أبا نواس زعيم هذا الفن وأنه متفوق فيه على مَنْ قبله ومَنْ بعده^(٥) بل هو أستاذ الناس في فن الخمر^(٦) أو هو السباق (إلى معان في الخمر لم يأت بها غيره)^(٧) (وله في تصوير الكؤوس معنى سبق إليه . . .)^(٨) أو كقوله أيضاً: (ومما يستحسن له في الخمر . . .)^(٩) وغالباً ما يجعلونه أحد أشهر الثلاثة في وصف الخمر: الأعشى والأخطل وأبي نواس^(١٠)، ويروي الجاحظ، قال: (سمعت إبراهيم النظام يقول وقد أنشد شعر أبي نواس في الخمر، هذا الذي جمع له الكلام فاختر أحسنه)^(١١) وعن ابن الأعرابي أنه قال يوماً لجلسائه ما أشعر ما قاله أبو نواس في الخمر، فكل انبرى لرواية شيء من شعره في الخمر، فقال ابن الأعرابي إن هذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه، وتقدم مَنْ سبقه ومَنْ تأخر عنه، ولكن أشعر من هذا كله في قوله:

لا ينزل الليل حيث حلتُ فدهرُ شربها نَهَانُ^(١٢)

وفي خبر يرويه البغدادي^(١٣) قال: اجتمع عند المأمون ذات يوم عدة فقال: أيكم القائل:
فلما تحسّأها وقفنا كأننا نرى قمراً في الأرض ييلع كوكباً.

(١) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٢٣١.

(٢) أبو نواس لعمر فروخ ص ١١٥.

(٣) تطور الخمرية في الشعر العربي ص ٢٠٨.

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص ١٩٥ و ص ٣٠٨.

(٥) حديث الأربعاء ٨٣/٢.

(٦) زهر الآداب ص ٤٥٩. (٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٨٣.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ٧٨٦. (٩) المصدر السابق نفسه ص ٧٨٧.

(١٠) العمدة ١٠٠/١، أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٨/١.

(١١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٧٨، أخبار أبي نواس ٦٢/١.

(١٢) أخبار أبي نواس ٦١/١. (١٣) تاريخ بغداد ٧/ ٤٤٥-٤٤٦.

قالوا: أبو نواس. قال: مَنْ القائل:

إذا نزلتْ دونَ أَلهَاءِ من الفَتَى دَعَا هَمَّهُ عَنْ صدرِهِ بِرَحِيلِ

قالوا: أبو نواس، قال مَنْ القائل:

فتمشّت في مفاصلِهِمْ كتمشّي البُرءِ في السَّقَمِ

قالوا: أبو نواس. قال: هو أشعركم إذاً).

بل إن بعض القدماء يزعم أن جميع ما قاله أبو نواس في الخمر حسن^(١)، وكان أبو تمام يعتبر ديواني أبي نواس ومسلم بن الوليد اللات والعزى يعبدهما من دون الله^(٢)، وكذلك كان أبو عبيدة عظيم الإعجاب ببني أبي نواس:

بَنِينَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءٍ مُدَامَةٍ مَكَلَّلَةٌ حَافَاتُهَا بِنَجُومِ^(٣)
فلورُذِّ في كِسْرَى بنِ سَاسَانَ رُوْحُهُ اذْنٌ لِاصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمِ

أما «الرقيق النديم» فقد اعتبر أبو نواس أمير الخمر وفارسها^(٤).

أما عند المحدثين، فيعتبر أبو نواس صاحب أوّل مدرسة في وصف الخمر عرفها الشعر العربي في شتى مراحلها، وإن الخمر كانت عروس شعره بل هي شيطانه^(٥)، لأن الخمر كانت فنه الأول^(٦) بل لقد اعتبر بعض الكُتّاب أشعاره في الخمر إحدى الوثائق التاريخية لمجتمع القرن الثاني^(٧).

أما أبو نواس نفسه، فقد كان يرى أن أشعاره في الخمر لم يقل مثلها وأنها وغزلياته أجود أشعاره^(٨). وعن أبي حاتم السجستاني، إن أبو نواس سُئل عن شعره فقال: (إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدي «أيها المتتاب عن عفره»، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي «طاب الهوى لعميده» فأما الذي أفنى فيه وحدي وكله جد فإذا وصفت الخمر...^(٩)) وكان أبو نواس إذا حضر حفلاً أو

(١) محاضرات الأدباء ١٨٦/٢.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٥٣/١.

(٣) المصدر السابق نفسه ٥٧/١.

(٤) قطب السرور في أوصاف الخمر ص ٣٦٨. (٥) العصر العباسي الأول، لشوقي ضيف، ص ٢٣٤.

(٦) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، لأنيس المقدسي ص ١١٨، ١٢٠.

(٧) تاريخ الشعر في العصر العباسي، ليوسف خليف، ص ٧٥.

(٨) أخبار أبي نواس ٥٤/١. (٩) أخبار أبي نواس ٥٩/١.

ندوة شعرية وجاء دوره في الإنشاد، ينشد إحدى خمرياته المشهورة^(١) ومعنى هذا كله أن أبا نواس أعطى لخمرياته من الجهد والوقت ما لم يعطه لأي فن آخر، وهكذا كانت الخمر فنه الأول، حتى أصبحت أشعاره فيها أدل على ذوقه ومزاجه وفكره، كما أودعها حكمته وفلسفته في الحياة، وكذلك كانت خمرياته مفتاح باب الشهرة له والخلود ولقد استطاع بملكاته الخاصة ومواهبه الفذة أن يطور فن الخمريات كما لم يفعل شاعر آخر، ذلك أنه استطاع أن يمضي بما انتهى إليه من صور الأقدمين الخمرية ومعانيهم، قدماً حتى تفوق على كل سابق عليه، وكل لاحق له، ومرد ذلك عندي إلى أمرين! أولهما شخصيته الفذة بمواهبها وملكاتها النادرة، الثاني التطور الطبيعي الذي حققه العصر العباسي في جميع مناحي الحياة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً.

ولقد كان تفوق أبي نواس في فن الخمر من الوضوح والقوة، حتى بدا من حوله من شعراء الخمر يزحفون من دونه على السفوح، وهو متربع على القمة وحده، فكأنه المبتكر الأول والأخير لفن الخمريات، وذلك لما اخترع من صور بديعة ووصف دقيق جامع شامل للخمر وألوانها وحنانها ومجالسها ومنتزهاتها وأديرتها وأدواتها وأوانها وأوعيتها وخماريها وسقاتها. كل هذا في لغة بديعة غنية بالتشبيهات والاستعارات البارعة مع حلاوة في النغم ورشاقة في اللفظ حتى كانت خمرياته الأكثر شيوعاً بين جمهور المتأدبين وعامة طلاب العلم والأدب والشعر، لأن أبا نواس لا يتمتع عقولهم وأذهانهم بالبديع الرائع من خمره فحسب، بل لأنه أيضاً يداعب عواطفهم ويدغدغ أحلامهم بما يثيره فيهم من شهوات مستوفزة وتطلعات مكبوتة توافق سن الشباب المتحفز الباحث عن المتعة والحب واللهو، ولأن أبا نواس كان صادقاً مخلصاً في تعامله مع الخمر شاعراً ومعاقراً، فناناً وإنساناً، لذلك حفلت خمرياته بحرارة الصدق وقوة التأثير، فكلامه عن الخمر، ينم أول ما ينم عن حب صادق عميق وإيثار أشبه أن يكون عبادة. وحب أبي نواس للخمر حب طاغ لا يقف دونه وازع أو رادع - من ضمير أو دين أو خلق، وإباحتها الخمرية هي التي أغرت الشباب العربي في كل جيل وعصر بالعكوف على خمرياته بالمدارسة والحفظ والمذاكرة إن حبه للخمر ملك عليه فكره ووجدانه ومزاجه، لذلك تجيء خمرياته دائماً وهي مشحونة بأحر العواطف وأقوى الانفعالات، هذا مع تزيينه للحياة العابثة اللاهية المغربية للباحثين عن اللهو والعبث وزينة الحياة الدنيا، وعن متاع الغرور أيضاً. على أن خمريات أبي نواس ليست هذا كله فحسب، بل كانت أيضاً صورة طريفة للهو وعبثه، ومجلى لثقافته وفلسفته فقد استفدت من حياته الجد واللهو معاً، لأنها كانت خلاصة تجاربه المرة والحلوة معاً، وخالصة جده وحكمته.

(١) أخبار أبي نواس ٣٢/٢-٣٣، والعقد الفريد ٣٧٥/٥.

وهكذا مثلت خمريات أبي نواس من خلال وجودها الشعري، الجد واللهم من حياة أبي نواس، فكانت له ضرورة الحاجة لا بد من البحث عنها والسعي في طلبها، كما كانت له مطلباً جمالياً لا بد من التعلق بها ومعايشتها وعشقها وحبها بحيث جمع الموضوع الخمري عند أبي نواس بين النفع وبين الجمال، بين الضرورة المادية وبين الشوق الوجداني. من أجل هذا كان لا بد لخمريات أبي نواس حتى تستوفي مطلب الضرورة، وغاية الفن أن تتجاوز نوعين من العقبات والموانع. الأول، عقبات وموانع من التقاليد والمذاهب والأعراف الاجتماعية، كانت تحاول أن تمنعه من التمتع بمحبوبته الخمر، والنوع الثاني، عقبات وموانع من التقاليد الأدبية والفنية المتوارثة، كانت تحاول كيح جماحه عن التحليق مع محبوبته في السماء التي يريد أن يرقى إليها، وهكذا تعددت مظاهر رفضه وتحديه لكل عائق من دون حريته الاجتماعية أو الأدبية قارناً تلك الثورة بالسخرية المرة من أعراف الناس الاجتماعية وتقاليدهم الأدبية فيما عُرف في تاريخ الأدب - بالشعبوية التي وصفتها بعض الكُتاب بالشعبوية الحضارية أو السياسية أو العنصرية.!

الخمر في شعر أبي نواس

باعتبارها حاجة ضرورية:

وهذا هو أحد الجانبين من حياته الذي مثلته الخمر بأن كانت حاجة ضرورية لا تستقيم له حياة بدونها وإلا أحس بالنقص والعوز، الجثماني والنفسي أيضاً، وقد عبّر أبو نواس عن هذا الجانب في العديد من قصائده الخمرية، كما كانت هذه النظرة الموضوعية، كفيئاً عدلاً لنظرة الأخرى الجمالية بحيث شكلاً معاً نظرتة الكلية إلى الخمر في صورة بناء شعري متكامل.

وهكذا رأى أبو نواس أن للخمر القدرة على إحياء النفوس بعد مماتها:

وَمُدَامَةٌ تَحْيَا النُّفُوسَ بِهَا جَلَّتْ مَأْتِرُهَا عَنِ الوَصْفِ^(١)

كما كانت الغذاء للجسم والروح معاً:

فَقَلْنَا لَهُ: إِنَّ المَدَامَ غَدَاؤَنَا وَاَنَا أَوْلُو عَقْلِ وَأَهْلُ بَصَائِرِ^(٢)

وأنها دواء لكل مقروح الفؤاد:

فَهِيَ فِيهَا كُلُّ مَا يَبْلُغُ مَقْرُوحِ الفؤادِ^(٣)

(١) ديوان أبي نواس ص ٦٦ طبعة الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٤.

وبها ينقش الغم:

أدِيرَا عَلَيَّ الْكَأْسَ يَنْقَشِعُ الْغَمُّ وَلَا تَحْبِسَا كَأْسِي فِي حِسْبِهَا إِيَّامٌ^(١)
فهى خير دواء للهموم وليس الماء القراح:

ليس للهَمُّ دَوَاءٌ كَاغْتِبَاقٍ وَاصْطَبَاحٍ^(٢)
فَلَعْمَرِي مَا يُدَاوِي الهمُّ بِالمَاءِ القَرَّاحِ

حتى إذا خطرت عليه الهموم فليس مثل الكأس مذهباً لها:

إِذَا خَطَرْتُ فِيكَ الهمومُ فذَاوَهَا بِكَأْسِكَ حَتَّى لَا تُكُونَ هُمومٌ^(٣)
والخمر إذن خير معين على مجابهة الهموم لأنها تمثل أجمل ما في الحياة، ولها الفداء الباقي
الذي من الحياة:

هَلَا اسْتَعْنَتْ عَلَى الهمومِ صَفْرَاءَ مِنْ حَلْبِ الكَرُومِ^(٤)
ووهبت للعيش الحميد بقیة العیش الذمیمِ

وفيها وفي الحب الغنى عما عداهما من الدنيا:

رَضِيْتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَاسٍ وَشَادِنٍ تَخِيرُ فِي تَفْضِيلِهِ فَطَنَ الفِكرِ^(٥)
ولذلك فلا خير في دنيا خلو من المدام مع الأكفاء من الندمان بين الورد والخيري والأس:
لَا خَيْرَ فِي العِيشِ إِلَّا بِالمَدَامِ مَعَ الأكْفَاءِ فِي الوردِ وَالخَيْرِي وَالأسِ^(٦)
وكذلك كانت المدام مع النديم سلوى عن الغموم، وخير ما يداوى به السقيم من سقمه:

تَعَلَّلْ بِالمُدَامِ مَعَ النديمِ فِيهِ الرُّوحُ مِنْ كُرْبِ الغُمومِ^(٧)
وَبَادِرْ بِالصُّبُوحِ فَإِنَّ فِيهِ شَفَاءَ السُّقْمِ لِلرَّجْلِ السَّقِيمِ

وإذن فما على الإنسان إلا أن يبادر إلى الكأس قبل فوات الشباب:

(١) ديوان أبي نواس، ص ١٠٤ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٠.

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٣١ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٣٩.

(٥) ديوان أبي نواس ص ١٣٧ ط. الغزالي.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٤٤.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٤٠.

بادرْ شبابَكَ قبلَ الشَّيْبِ والْعَارِ وحِثِّ الكَأْسَ من بَكْرِ لَأَبْكَارِ^(١)
وَأَنْ لَا يَتَوَانَى عَن مَغَادَاتِهَا فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ من غيرِ أَنْ يَضِيرَهُ تَحْرِيمُهَا، لِأَنَّ مَنْ فَاتَهُ الخَمْرُ
عَاشَ مَحْرُومًا هَزِيلًا:

وَاعْدُ إِلَى الخَمْرِ بِأَسَانِيهَا لَا تَمْتَنِعْ عَنْهَا لِتَحْرِيمِ^(٢)
فَمَنْ عَدَا الخَمْرَ إِلَى غَيْرِهَا عَاشَ طَلِيحًا عَيْشَ مَحْرُومٍ

وَإِذَنْ فَلَيْسَ مِثْلَ الكَأْسِ مَوَاسِيًا عَنِ الهمومِ قَاطِعًا لِذَابِرِهَا:

لَأَقْطَعَنَّ بِسَاطِ الهمِّ بِالكَأْسِ فَلَيْسَ لَهِمِّ مِثْلُ الكَأْسِ مِنْ آسِ^(٣)
وَالجَاهِلُ هُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ فَضْلَ الخَمْرِ عَلَى الإِنْسَانِ وَلَا مَا تَجْدِيهِ مِنْ آلاءِ، أَمَا أَبُو نَوَاسٍ
فَهُوَ الخَبِيرُ بِفَضْلِهَا العَارِفُ بِقِيمَتِهَا:

رَدًّا عَلَيَّ الكَأْسَ إِنْ كَمَا لَا تَدْرِيانِ الكَأْسُ مَا تُجْدِي^(٤)
مَا مِثْلُ نَعْمَاهَا إِذَا اشْتَمَلْتُ إِلَّا اشْتَمَالٌ فَمِ عَلَيَّ خَدًّا

وَكَذَلِكَ كَانَتِ الخَمْرُ خَيْرَ سُلْوَانٍ عَمَّا تَوَرَّثَهُ فِرْقَةُ الإِخْوَانِ مِنْ أَحْزَانٍ:

لَا تَحْزَنْ لِفِرْقَةِ الإِخْوَانِ وَأَقْرِ الفُؤَادَ بِمُذْهِبِ الأَحْزَانِ^(٥)

وَهَكَذَا كَانَتِ الخَمْرُ بِمَا تَحْدِثُهُ فِي عَقْلِ الإِنْسَانِ تَجْلُو عَنْهُ مَا يَلْقَى بِهِ مِنْ هُمومٍ، حَتَّى أَنهَا
لَتَبْعَثَ فِي الشَّحِيحِ الأَرِيحِيَّةِ فَتَحْتَهُ عَلَى الجُودِ، فَيُتَظَاهَرُ بِالغِنَى وَهُوَ مَعْدَمٌ، وَلِذَا كَانَتِ لَهُ أَنْفَعُ مِنَ
المَاءِ وَهُوَ ظَامِيءٌ:

تَغَاوَزَ عَقْلَ المَرءِ قَبْلَ ابْتِسَامِهِ وَتَخَدَّعَهُ عَنِ لُبِّهِ وَعَنِ الجِلْمِ
وَعَسَنَهُ يَسِيلُ الهمُّ أَوَّلَ أَوَّلًا وَإِنْ كَانَ مَسْجُورَ الجَوَانِحِ بِالهمِّ
وَيَسَاقُ لِلجَدْوَى وَإِنْ كَانَ مُمَسْكَأً وَيُظْهِرُ إِكْثَارًا وَإِنْ كَانَ ذَا عُدْمٍ
كَذَلِكَ عَلِمْتُ الرَّاحَ، مَا الغَيْثُ فِي الظُّمَاءِ بِأَنْفَعِ مِنْهَا فِي الطَّبِيعَةِ وَالجِسْمِ

وَمَنْ فَعَلَهَا فِي العُقُولِ، أَنهَا تَبْعَثُ فِيهَا خَلَائِقَ كَامِنَةً فَالعَاقِلُ تَزِيدُ فِي عَقْلَانِيَّتِهِ، كَمَا تَزِيدُ فِي

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٥٥ .

(١) ديوان أبي نواس ص ١٤٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٨٢ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٥٩ طبعة الغزالي .

(٦) ديوان أبي نواس ص ٢٠٢ طبعة الغزالي .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥ .

سفاهة السفيه من الناس، وهكذا يصبح أقل الناس عقلاً وهو صاح، أقلهم أيضاً وهو سكران في حين تبقى على العاقل عقله فكان الخمر محك لأفهام الرجال:

أرى الخمر تربي في العقول فتنتضي
تزيد سفيه القوم فضل سفاهة
وجدت أقل الناس عقلاً إذا انتشى
كوا من أخلاق تثير الدواهي^(١)
وتترك أخلاق الكريم كما هيأ
أقلهم عقلاً إذا كان صاحبياً

والهموم عادة ما تكون عوامل معوقة عن الارتقاء والتقدم أما الخمر، كما يقول أبو نواس، فعلى العكس، إنها تدفع إليهما وها هو شاعرنا يتقدم من أحد ندمائه وقد أخذ السكر منه مأخذه فيحاول إيقافه من سكرته وهو مستغرق في همومه عارضاً عليه شربة من خمر تسري عنه وترتفع به على الهموم:

ومُتَرَفِّ عَقْلَ الحَيَاءِ لِسَانُهُ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الكَرَى فِي عَيْنِهِ
حَرَكْتُهُ بِيَدِي وَقَلْتُ لَهُ انْتَبِهْ
حَتَّى أَزِيحَ الهَمَّ عَنْكَ بِشَرْبَةِ
فكلامه بالسوخي والإيماء^(٢)
قد عقّد السجفنين بالإغفاء
يا سيّد الخلطاء والندماء
تسّموبصاحبها إلى العلياء

وأخيراً فإن الخمر أم اللذات، لا يجوز السلو عنها إذا جاز عن غيرها، ففيها كل الغنى عمّا سواها من لذات.

اعزّم على سلوة إلا عن الكأس
لأن الخمر لا تكاد تدخل جوف الإنسان حتى ترحل عنه الهموم فالخمر والهم لا يجتمعان:
إذا ما أتت دون ألهاة من الفتى
دعا همّه من صدره برحيل^(٣)
وما على الإنسان إلا أن يبدأ يومه بأبنة الكرم، حتى يتصر بها على هموم الحياة:
بكر صبوحك بأبنة الكرم
بمدامة تُعدي عليّ همّ^(٤)

(١) ديوان أبي نواس ص ٢١٣ طبعة الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢١١ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٦ .

إصراره على الخمر برفض لوم اللائمين فيها :

يمثل هذا الموقف من أبي نواس أحد الجوانب الموضوعية الإيجابية من حبه للخمر وعكوفه عليها، وذلك حين رأى في لوم اللائمين عدواناً على حريته الشخصية. إن رفض أبي نواس للوم اللائمين ليس رفضاً عشوائياً بل هو رفض بصير مقرون بالإصرار، وبالحجة، وبمواطن اللوم، وأسباب الدفاع، لذلك ساق المسوغات للإصرار على الخمر، كما تسلح بالأسباب الداعية للرفض، رافعاً عقيرته بالتحدي في وجه لؤامه وعدّاله من ذلك طلبه إلى نديمه أن يسقيه، بكأس الزجاج رغم لوم اللائمين :

ارددْ عليّ المدامَ بالجامِ وَسَقِّينَهَا بِرِغْمِ لُؤَامِي^(١)

حتى إذا أمره الخليفة أن يمتنع عن الخمر، اكتفى منها بالشم، تاركاً لللائمين أن يمضوا في لومهم، ولكن المعروف أن أبا نواس لم يطق الصبر عن الخمر طويلاً حتى عاد إليها ضارباً بأمر الخليفة ولوم اللوام عرض الحائط^(٢) :

أيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللُّومِ، لُؤْمَا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيمَا^(٣)
نَالِنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمَا

على أن أحسن ما واجه به أبو نواس لائمه حين لمس هذه الدقيقة النفسية من حياة الملوم، وذلك لما أوتي من خبرة نفسية عميقة، ومن استكناه لحقيقة النفس البشرية فإن المعروف أن كثرة اللوم والنهي، من زجر وردع وتأنيب ربما أغرت الإنسان بالإصرار على ما هو فيه من خطأ كالتلميذ الذي ربما أضربه التعنيف والتقريع أكثر من أن يفيده، وهكذا كان حال أبي نواس مع لائمه، حين يطلب إليهم أن يكفوا عن لومه لأن ذلك ربما أغراه بما يريدون صرفه عنه وثنيه، لأن النهي عن الشيء كما قيل، داع إلى تعاطيه كآدم وحواء حين نهيا عن الشجرة.

وكمظهر للرفض والتحدي والإصرار، جعل أبو نواس ما هو محسوب عند لائمه داء، عنده دواء، أعني الخمر، وهكذا عاد لومهم عليهم بما لم يحسبوا حسابه ولم يقدره أو يريدوه :

دُعْ عَنكَ لُؤْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ^(٤)
حتى إذا بلغ بلائمه حد إيلامه توجع ولكن دون أن يتراجع عن موقفه، لأن له أسلوباً خاصاً في

(٢) أخبار أبي نواس ١/١١٦.

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٤ ط. الغزالي.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦، طبعة الغزالي.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٩ ط. الغزالي.

الطاعة والعصيان، وليس من عادته أن يفرط في حق الصباية أو أن يلجأ إلى المكاس مع الخمار، وإنما هو باذل ماله مهين له في سبيل الخمر، حافظ لعرضه :

أعاذل أن اللوم منك وجيعٌ ولي إمرة أعصي بها وأطيع^(١)
كفيت الصبا من لا يهش إلى الصبا وجمعت منه ما أضاع مضيع
أعاذل ما فرطت في جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبع
أسامحه أن المكاس ضراعة ويرحل عرضي عنه وهو جميع

على أن أطرف ما وسم به أبو نواس لائمه حين سمى لومهم إياه بدعة، ومعروف أن هذا العصر كان عصر بدع وأفكار ومدارس ومذاهب فكرية كثيرة متباينة فمن سنة إلى شيعه إلى متكلمين إلى صابئة إلى زنادقة إلى غير ذلك من مجوس وسمنية ومانويين . . . ونصارى ويهود . . . كل هذه المذاهب والفرق يحتدم بينها النقاش والجدل فيما يجوز وما لا يجوز وكان طبيعياً والحالة هذه أن تكثر البدع والاجتهادات، حتى وجدنا شاعرنا يسمى اللوم بدعة، وكان ذلك خروج على المألوف عنده من معاقرة الخمر والعكوف على اللذة، وهي بدعة كالإثم الفادح أو كإحدى الكبائر التي تدخل صاحبها النار. بل هي بدعة تلحق صاحبها بالكافر، وكيف يدعن اللوم لائم، وهو الذي لا يزيده اللوم إلا إصراراً على ما هو فيه، رافضاً الحد من حرته، لأنه لا يطيق صبراً عن الخمر، فاللوم إذن عدوان على حرته الشخصية حتى استوى عنده الإثم أو الوزر الفادح (في عرف لائمه) بالحرية (بمفهومها عنده). ويعلل أبو نواس عدم إقلاعه عن معاقرة الخمر أو عدم رفضه لها تعليلاً طريفاً لا يخلو من خبث ودهاء، وذلك حين يزعم أن الله سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز على اسمها دون أن يذكر كيف كان ورود الاسم، وكذلك خليفة الله الذي لا شك أنه الأمين، صديق الخمر، ولهذين السببين يرفض هو أن يرفضها مبقياً على رفقتها ما عاش معاقراً لها :

ولاح لحاني كي يجيء ببدعة وتلك لعمري خطة لا أطيعها^(١)
لحاني كي لا أشرب الراح، إنها تورث وزراً فادحاً من بذوقها
فما زادني اللاحون إلا لجاجة عليها، لأنني ما حيت رفيقها
أرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

(١) ديوان أبي نواس ص ٧.

(٢) نفسه ص ٩ طبعة الغزالي.

وهكذا يمزج أبو نواس رفضه للوم اللاتمين بالتقوير والإعزاز للخمر، وإذن فمن الجهل اللوم في الخمر طالباً إلى لائمه أن لا يشين اسمها بلفظه، ومعروف أن أبا نواس كما سنرى في غير هذا المكان، خلغ على الخمر من ألقاب وأسماء وصفات الإجلال والتمجيد ما لم يخلعه على أجل ممدوحيه وأعظمهم شأنًا، وإذا جاز لنا المقارنة في هذا المجال، بين الخمر وبين ممدوحيه قلنا إن الخمر هي أعظم ممدوحيه خطراً وأجلهم شأنًا وأرفعهم مكاناً عنده لأن مديحه إياها كان خالصاً لوجه المدح ومديحه الآخرين لأسباب أخرى عرضنا لها في مكانها من هذه الدراسة.

عاذلي في المدام لا أرضيكَا إِنَّ جَهْلًا مَلَامٌ مِنْ يَعْصِيكََا^(١)
لا تُسَمِّ المدامَ إِنْ لُمْتَ فِيهَا فَتَشِينُ اسْمَهَا الْمَلِيحَ بِفِيكََا

وأبو نواس يجعل دائماً في إذنه وقرأً عن سماع لائمه في الخمر، إن اللوم فيها خارج عن دائرة المعقول، ولذلك يطول العتاب مع هذا اللائم إذا حاول صرفه عن حبيته لما بين أبي نواس ولائمه من اختلاف في التقويم فهسا على طرفي نقيض من المعرفة بالخمر: اللائم ينصح برفضها لأنها تضر أو هي حرام، وأبو نواس يعتبرها شقيقة روحه . . . أو معبودته أو رفيقة عمره . . . إلى آخر ما أسبغ عليها وما أضفى من عشرات بل مئات ألفاظ التودد والإجلال والتمجيد:

أَعَاذُلُ مَا عَلَي مِثْلِي سَبِيلُ وَعَدْلُكَ فِي الْمُدَامَةِ يَسْتَحِيلُ^(٢)
أَعَاذُلُ لَا تَلْمُنِي فِي هَوَاهَا فَإِنَّ عِتَابَنَا فِيهَا يَطُولُ
كَلَانَا يَدْعِي فِي الْخُمْرِ عِلْمًا فَدَعْنِي لَا أَقُولُ وَلَا تَقُولُ

وما دام الأمر كذلك فلماذا يحمل اللائم نفسه شططاً في لوم أبي نواس، وها هو الشاعر يتوجه إلى لائمه بالنصيحة أن يقل عنه اللوم، وأن يشاركه لذته متحرراً من قيوده الدينية التي لا تتفق ولذة الخمر. فكلما دعاك داعي الصلاة أو الصوم فما عليك إلا الخمر ترفع بها الصوم مازجاً إياه بالنوم، لسيان ما بينهما من خلاف، هكذا فليكن دأبك مخالفة دأب الآخرين حتى تفوز بلذتك وحررتك أيضاً:

عَاذِلِي فِيهَا أَطْعَنِي وَأَقِلَّ الْآنَ لَوْمِي^(٣)
وَأَشْرَبِ الرَّاحَ، وَدَعْنِي مِنْ صَلَاةٍ كُلِّ يَوْمٍ

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣ .

(٢) نفسه ص ١٨٤ طبعة الغزالي .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٠٥ .

فَارْفَعِ الصَّوْمَ بِشَرْبِ وَاْمِزْجِ الخَمْرِ بنَوْمِ
أَبْدًا مَا عَشْتِ خَالَفَ ذَابَ قَوْمٍ بَعْدَ قَوْمِ

وهكذا ظل أبو نواس يكرر هذا المعنى طويلاً في شعره:

«أيها العاذل دع لومي في شرب الرحيق»

كانه يحس أن اللوم قيود تفرض عليه فرضاً للحد من حرите حيث يجدها في مزاولة أسباب اللذة وعلى رأسها وفي مقدمتها معاقرة الخمر. . . !

بل إن أبا نواس لا يتورع عن الإعلان باللفظ الصريح بأنه لن يقلع عن الخمر حتى إذا كان الثمن استبدال النار بالجنة، فليكن نصيب من لا يعاقرها الجنة وهو راضٍ بنصيبه في النار.

السُّرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارُهَا فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلْتِكَ السُّرَّاحُ أُؤْزَارًا^(١)
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمْرَاءَ صَافِيَةٍ صِرْفِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنِ النَّارَا
المظاهر الجمالية في خمريات أبي نواس
- أسماء الخمر وصفاتها وألقابها:

يقول أبو نواس:

أَثْنِ عَلَى الخَمْرِ بِأَلْيَهِهَا وَسَمِّهَا أَحْسَنَ اسْمَائِهَا^(٢)

أما أحسن الأسماء التي يريد أبو نواس إطلاقها على محبوبته الخمر فكثيرة متنوعة شاملة لمختلف أحوال الخمر وقد أربت على جميع ما حفلت به الخمريات الجاهلية والإسلامية من أسماء وصفات وألقاب حتى تجاوز عددها العشرة والمئة منها ما هو مسبوق بها ومنها ما هو من مبتكرات العصر أو من مبتكرات أبي نواس نفسه ولم يذكرها «النواجي»^(٣) ولا «الرقيق النديم»^(٤) القيرواني.

وفيما يلي محاولة لضبط الأسماء والصفات المنقولة والتي وردت في أشعار السابقين عليه، أو التي ذكرها «النواجي» خاصة.

(١) الديوان ص ٢٨٣ ط. آصاف.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٣ ط. الغزالي.

(٣) حلبة الكمي ص ٦ وما بعدها.

(٤) قطب السرور في أوصاف الخمر، في مواضع متفرقة.

الراحة - الراح - سلافة - شمطاء - المدامة - العتيق - عقار - الصرف - بكر - قرقف - الأسفنت
- الزرجون - الطلا - القهوة - الصهباء - نبذ - شمول - كميت - الخندريس - مشمولة - خرطوم - مشعثة
- عتيق - عذراء - معتقة - طيبة (المذاق) - شراب (خروب) - عروس - مزة - بابلية - بنت كرم (عنب)
- سلسالة (الطعم) - رحيق بنت الدهر (أم) - سلسل - الدم (دم الشادن) - جريال البيسانية - الخمر
- صافية - درياق .

أما الأسماء والصفات الأخرى التي لم يذكرها «النواجي» فهي :

ياقوتة - الصبوح - الصبا - خسروي (في وصف الشراب) - الشمس - أميرة - مختوم - المسك
السحيق - محجبة - ذهبية - كريمة الجدين - مصونة - لهب - لؤلؤ - الداء والدواء - نار - زيتية - كرخية
- سلم - حرب - سخامية - رقيقة السربال - جمر - مسك - ربيبة كسرى - كريمة - عجوز حمراء -
عصارة الورد - شهاب دجن - زرقاء - يهودية - مسلمة - مجوسية - شامية - عراقية مسحولة .

وجميع هذه الأسماء والصفات تدل على شيئين اثنين هامين . أولهما، عمق الصلة التي كانت
تربط بين أبي نواس والخمر . الثاني أن هذه الأسماء والصفات تعتبر جزءاً من ثقافة الشاعر وخبرته
مما أغنى الكيان الشعري للخمر، وأثرى التجربة الشعرية للشاعر . هذا، ويمكننا أن نصف جميع
ما ورد من أسماء الخمر وصفاتها في شعر أبي نواس في ثلاث قوائم تتناول كل قائمة منها جانباً من
حياة الخمر النواسية .

أما القائمة أو المجموعة الأولى فالغالب عليها طابع الوصفية التقريرية كأن تحدد لون الخمر أو
نسبتها إلى بني جنسها أو وطنها أو دينها، أو أنها تحدد طعمها ولونها أو رائحتها مثل : كرخية،
(شراب) خسروي وخسرواني - بابلية - مجوسية - يهودية - مسلمة - عراقية - شامية - بيسانية - بيضاء
- صفراء - الصبوح - خرطوم - قرقف - عقار - الراح - الراحة - المدام - القهوة - الكميت - مشمولة
- عتيق - بنت الدهر . . . !

أما القائمة الثانية فتضم مجموعة الأسماء والصفات التي تمجد الخمر بل تقدها والغالب
عليها التودد والتعجب للخمر والتمدح بالآنها ومفاتها من مثل : رحيق - ودم الشادن - ومشعثة -
والمسك السحيق - وذهبية - ودر - وكريمة الجدين - ولهب - ولؤلؤ - ومسك - ورببيبة كسرى -
وعصارة الورد - وشهاب دجن - ونار وزيتية - وياقوت - وشمس - وفواحة - والعتيق . . . !

أما القائمة الثالثة فتضم مجموعة الأسماء والصفات التي تدل على علاقة خاصة، ومن خلالها
كان الشاعر ينظر إلى خمره، نظرته إلى أنثى يشتهيها، وربما كان أبو نواس أول من أصل هذا

الاتجاه في الشعر العربي إذا كنا وجدنا له ظللاً عند الأعشى وبعض شعراء الخمر الإسلاميين كأبي الهندي، ولكن هذه الظلال أو البوادر الساذجة لم تتضح معالمها وتصبح تياراً متميزاً إلا على يدي أبي نواس الذي يعتبر المؤصل الحقيقي لهذا المترع المجدد في شعر الخمر، وهكذا أضفى أبو نواس على الخمر الأسماء والصفات التي تطلق عادة على المرأة من مثل: بكر - عروس - ربيبة كسرى - كريمة - اخت شيطان - أميرة محجوبة - عذراء .

- الخَمَار :

يعتبر الخَمَار في خمريات أبي نواس عنصراً أساسياً وركناً هاماً لا غنى عنه في فهم هذه الخمريات والوقوف على أبعادها الجمالية والموضوعية، فهو دليلنا إلى الرحلة في عوالم أبي نواس الخمرية بيده مبزل الدنان والجرار وأشقى البواطي والزقاق، وهو القِيم على شؤون الخمر وحافظ عورتها، وسادن صومعتها والموكل باستقبال عشاقها من الزائرين، في الحانة أحياناً، وفي الحانوت أو الدير أحياناً أخرى، وهو التاجر والدهقان، أو الساقى والنديم وهو الشاب ذو الجمّة، وهو العجوز الأشمط أو الشمطاء وهو العليج الأزرق. كما أنه اليهودي أو النصراني أو الفارسي المجوسي أو النوبي الأسود أو الرومي أو النبطي أو الكردي الجبلي الشديد وهو الزميت أو المتسامح، كانت مهامه كثيرة وخطيرة، كما دلنا عليها أبو نواس ولكنها جميعاً منوطة برغبة شراب الخمر ومعاقبتها، وبالسهر على مصلحة الخمر نفسها وصيانتها وإتحاف زواره بها وتهيئة الأجود منها. كذلك فإن للخَمَار دوراً هاماً في قصص أبي نواس الخمرية التي عادة ما تبدأ بالحوار مع الخَمَار عند ولوج الحانة وتنتهي بوداعه في الهزيع الأخير من الليل وهو يودع الحانة.

هذا، وفي ظل تسامح المسلمين وتركهم لأهل البلاد المفتوحة حرية المتاجرة بالخمر مثل بقية السلع^(١) كثرت الحانات حتى كان منها الخاص والعام^(٢)، كما كثر عدد الخَمَارين ومعظمهم من الأعاجم مع تعدد جنسياتهم ودياناتهم حتى أصبح من تمام الة الخمر كما يقول الجاحظ: (أن يكون ذمياً ويكون اسمه أذين أو شلوما أو مازيار أو ازدا نقاذار أو ميشا ويكون أرقط الثياب مختوم العنق...)^(٣).

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ١٠٦ لجميل سعيد.

(٢) المسالك والممالك للعمري ص ٣٩٥.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/٩٤.

أما أبو نواس فقد وقفنا على الكثير من أحوال الخَمَار متجاوزاً أحواله المعيشية إلى إضفاء صورة فنية عليه من خلال وجوده الشعري وهكذا جاءت شخصية الخَمَار مثيرة جذابة، حتى اسمه يقدمه لنا أبو نواس في العديد من الصور فربما جاء به مجرداً من غير صفة أو إضافة مثل:

وخمَارٍ حططتُ إليه ليلاً قلائصٌ قد ونينَ من السُّفَارِ^(١)

وربما جاء اسم «الخَمَار» مضافاً إلى «بيت» أو «منزل» مثل قوله:

- وفتيانٍ صدقٍ قد صرفتُ مطيَّهمُ إلى بيتِ خمَارٍ نزلنا به ظُهراً^(٢)

- يا ربَّ منزلِ خمَارٍ أطفئتُ به والليلُ حلتُهُ كالقارِ سوداءُ^(٣)

وربما دعا الخَمَار دهقاناً:

خطبنا إلى الدهقانِ بعضَ بناتهِ فزوجنا منهنَّ في خدرِهِ الكُبْرَى^(٤)

أو تاجراً مضافاً إلى حان كقوله:

نحنُ في حانِ تاجرٍ عندنا اللهـُ وبِحلمٍ لم نمتزجهُ بطيشِش^(٥)

أوربَّ حانة كما في قوله:

إلى حاناتِ خمري في كُرومٍ معرَّشَةٍ، مُعرجةِ النَّوْاحِي

فأقبلَ ربُّها يسعَى إلينا يُهنئُ بالفلاحِ وبالنَّجَاحِ^(٦)

أوربَّ «حانوت»:

وأشمطَ «ربَّ حانوتٍ» تراهُ لِنفخِ الرِّقِ مسودَّ السَّبَالِ^(٧)

كما يسمى أبو نواس جملةً من النساءِ الخَمَارَاتِ من غير المسلمات^(٨)، وكانت كثرتهن من

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٧ ط. الغزالي. وأيضاً ص ٨٥، ٨٨، ٩٣، ١٠٠، ١٣٥، ١٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦١، وأيضاً ص ١١٠ و ١٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١١٨ وأيضاً ص ٢٠٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٨١، والدهقان هو التاجر أو زعيم خلاص العجم.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٦٩، وأيضاً ص ٦٧.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ٦٢، وأيضاً ص ٤٨.

(٨) ألحان الحان ص ١٨.

اليهوديات^(١) وإن يكن للنصارى في إدارة الحانات باع طويل^(٢) وقد أطلق أبو نواس على هؤلاء الخمّارات اسم ربّات الحوانيت، منهن هذه الخمّارة الكافرة الشمطاء.

إذا بكافرة شمطاء قد برزت في زيّ مختشعٍ لله، زمّيت^(٣)

ومنهن خمّارة يهودية أو كما يقول أبو نواس دين «ابن عمران» دينها، ولكنها مهذبة وكنيتها أم حصين:

لخمّارة دين ابن عمران دينها مهذبة تُكنى بأُمّ حصين^(٤)
وأخرى لا يزال فيها بقية من جمال تتاجر بها:

وخمّارة للهو فيها بقية إليها ثلاثاً نحو حانتها سرتنا^(٥)

ورابعة شمطاء كافرة خبيثة استطاعت أن تكسب ود «الوالي» فهي تعتز بحمايته لها:

في بيت كافرة بالخمير تاجرة شمطاء، شاطرة تعتز بالوالي^(٦)

وأخرى سيئة الطباع يهودية جميلة ولكنها ما إن يستخفها السكر حتى تصبح في صولة الجبار:

لا سيما عند يهودية حوراء، مثل القمر الساري^(٧)

تسقيك من كف لها رطوبة كأنها فلقة جمار

حتى إذا السكر تمشى بها صار لها صولة جبار

ويحدثنا أبو نواس عن خمّارة قوادة فما أن طلب إليها هو وأصحابه مواععتها حتى افتدت نفسها

بغلام يصفه أبو نواس «بأبلج كالدينار في طرفه فتر»:

وخمّارة نبهتها بعد هجعة وقد غابت الجوزاء، وارتفع النسر^(٨)

(١) تطور الخمرات في الشعر العربي ص ١٠٨.

(٢) المسالك والممالك للعمري ص ٢٩٣.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٨ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٨٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٩.

(٦) ديوان أبي نواس ص ٦٨٠ ط. الغزالي، و ص ٣١٥ ط. آصاف.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ٥٤.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ٢٨.

فَقَالَتْ «مِنَ الطَّرَاقِ» قَلْنَا «عَصَابَةٌ
 وَلَا بَدًّا أَنْ يَزِنُوا فَقَالَتْ: «أَوِ الْفَدَا
 فَقَلْنَا لَهَا: هَاتِيهِ، مَا إِنَّ لِمِثْلِنَا
 خِفَافُ الْإِدَاوَى يُتَغَى لَهُمْ خَمْرُ
 بِأَبْلَجٍ كَالدِّينَارِ فِي طَرْفِهِ فَتَرُ
 فَدَيْنَاكَ بِالْأَهْلِينَ عَنْ مِثْلِ ذَا صَبْرُ
 وَلَا يَنْسَى أَبُو نَوَاسٍ أَنْ يَحْدِثْنَا عَمَّا كَانَ يَجْرِي بَيْنَ رَوَادِ الْحَانَاتِ وَالخَمَّارِينَ مِنْ مَكَاسٍ وَمَسَاوِمَةٍ
 فَهَذِهِ «دَهْقَانَةٌ» مِيزَانُهَا نَصَبَ عَيْنِهَا، وَهُوَ مِيزَانُ غَشُومٍ وَمَعَ هَذَا فَأَبُو نَوَاسٍ يَتَرْضَاهَا حَتَّى تَجُودَ لَهُ فِي
 الخمر:

وَدَهْقَانَةٌ مِيزَانُهَا نُصِبَ عَيْنُهَا وَمِيزَانُهَا لِلْمُشْتَرِينَ غَشُومٌ (١)
 وَمِنَ الخَمَّارِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ أَبُو نَوَاسٍ «العلج»:
 فَقُلْتُ لِلْعَلِجِ عَلَّنِي، قُرْبٌ فَتَى عَلَّتُهُ فَانْتَشَى مِنْ نَشْوَةِ الرَّاحِ (٢)
 أَوْ «الْأَشْمَطُ» الْمَعْرُوفُ بِكِرْمِ الْإِسْتِقْبَالِ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ ذِمِّي كَافِرٌ ظَاهِرُ الشَّرْكِ:
 فَلَمَّا حَلَلْنَاهَا نَزَلْنَا بِأَشْمَطٍ كَرِيمِ الْمُحْيَا، ظَاهِرِ الشَّرْكِ، كَافِرٍ
 وَمِنْهُمْ الْفَتَى فِي رَوْتِ الشَّبَابِ كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ خَمَّارٍ فَتَى عَبَادِي نَصْرَانِي:

وَرَبِّ مُحَضَّبِ الْأَطْرَافِ رَحْصٍ مَلِيحِ الدَّلِّ، ذِي وَجْهِ صَبِيحِ (٣)
 ظَفَرْتُ بِهِ، وَنَجْمُ الصُّبْحِ بَادٍ عَبَادِيًّا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ
 فَسَرَّ بَطْلَعَتِي لَمَّا رَأَيْتِي وَأَيَقَنَ أَنَّي غَيْرُ الشَّحِيحِ
 وَقَامَ بِمِبْزَلٍ فَافْتَضَّ بِكْرًا عَجُوزًا قَدْ تَجَلُّعَ عَنِ الْمَدِيحِ
 وَكَثِيرًا مَا يَبْدَأُ أَبُو نَوَاسٍ خَمْرِيَّتَهُ مَتَغْنِيًّا بِجَمَالِ الخَمَارِ، كَقَوْلِهِ أَيْضًا:

وَأَحْوَرَ، ذِمِّي، طَرَقْتُ فَنَاءَهُ بِفَتِيَانِ صِدْقٍ، مَا تَرَى مِنْهُمْ نَكْرًا (٤)
 فَلَمَّا قَرَعْنَا بَابَهُ هَبَّ خَائِفًا وَبَادَرَ نَحْوَ الْبَابِ، مُمْتَلِكًا ذَعْرًا
 وَقَالَ: «مِنَ الطَّرَاقِ لَيْلًا فَنَاءَنَا فَقُلْتُ لَهُ: «افْتَحْ! فَتِيَةٌ طَلَبُوا خَمْرًا
 فَأَطْلُقَ عَنِ أَبْوَابِهِ غَيْرَ هَائِبٍ وَأَطْلَعَ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمْرًا بَدْرًا
 وَهَذَا خَمَّارٌ فَتَى لَهُ وَفَرَةٌ أَيْقِظُهُ أَبُو نَوَاسٍ مِنْ نَعَاسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْتَدِلَ نَفْسَهُ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٩.

(١) ديوان أبي نواس ص ١٣١ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٦٤.

كاعب بيضاء حسناء تقوم مقامه :

يا ربّ منزلِ خمارٍ أطفئتُ بهِ والليلُ حلتُهُ كالقارِ سوداءُ^(١)
فقسام ذو وَفْرةٍ من بطنِ مَضْجعهِ يميلُ من سُكْرِهِ والعينُ وَسْناءُ
فقال «مَنْ أَنْتَ» في رِفْقٍ فقلتُ لهُ «بعضُ الكرامِ . . !» ولي في النَّعْتِ أسماءُ

هذا، وتطالعنا من بين خمريات أبي نواس جملة من أسماء الخمارين المشهورين منهم ابن أذين صاحب حانة قطربل^(٢)، وفيها يقول أبو نواس^(٣) :

اسقني يا ابن أذين من شرابِ الزُّرْجُونِ

ومنهم «جابر» صاحب حانة جابر^(٤)، وكان (لطيف الخلقة نظيف الثياب، نظيف الآلة . . .) .
وفي حانة هذا الخمار عاد أبو نواس إلى معاورة الخمر بعد أن توعدّه الأمين إن هو شربها فشربها
وأعلم الأمين بالأمر فسامحه ورضي عنه^(٥). وخمار ثالث اسمه سرجس^(٦) وكان خمار حانة «طيرنا
باذ» ومنهم أيضاً خمار اسمه «سابا» ولقبه «شمر» وفيه يقول أبو نواس :

فقلتُ له ما الاسمُ حُيِّتَ قالَ لي دعاني أبي سَابَا وَلَقَّبَنِي شَمْرًا^(٧)
وخمار آخر يدعى «سموال» وكنيته أبو عمرو، من غير أن يكون له ولد بهذا الاسم :

فقلنا له : ما الاسمُ قالَ «سَمَوَالُ على أنني أُكْنَى بِعَمْرٍو ولا عَمْرًا^(٨)»
ومنهم أيضاً الخمار النصراني «باري» وكان ينزل في ناحية نهر طابق ببغداد، وكثيراً ما كان أبو
نواس يغشي جانوته وفيه يقول إشارة إلى أنه جاءه أبو نواس وهو مخمور :

داوِ يَحْيَى من خَمَارِهِ بابتةِ الدِّنِ وَقَارِهِ^(٩)
من شرابِ كُسْرَوِيٍّ ما تَعَنُّوا باغتصَارِهِ

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٠٠ ط . الغزالي، وط . آصاف ص ٢٣٥ .

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ص ٣٩٤ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٧٠ ط . الغزالي، وأخبار أبي نواس، لابن منظور ١/٢١٢ .

(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ص ٣٨٩ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣٩١ .

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٩٢ .

(٧) ديوان أبي نواس ص ١٢٤ ط . الغزالي .

(٨) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١/١٥٦ .

(٩) المصدر السابق نفسه ص ٦١ .

وبالنظر إلى أن هوى أبي نواس كان مع الفرس لذلك رأيناه يبرى الخَمَارَ المجوسي من الغش أو العيب في قوله:

أُتِيحُ لَهَا مَجُوسِيٌّ رَقِيْقٌ نَقِيٌّ الْجَيْبِ مِنْ غَشٍ وَذَامٍ^(١)
وربما استدل بزنا الخَمَارِ، شارة أهل الذمة، على ديانته من كونه غير مسلم:

فلما حكى الزنارُ أن لَيْسَ مُسْلِمًا ظَنَنْنَا بِهِ خَيْرًا فَظُنُّنَا بِنَا شَرًّا
وربما دلت هيئة الخَمَارِ على موطنه كهذا الخَمَارِ الكردي من سكان الجبال الأشداء:

عَتَقَهَا الْكُرْدِيُّ فِي مَجْلِسٍ بَيْنَ بَسَاتِينَ وَأَجْبَالٍ^(٢)
ثم أَتَانَا نَاكِسًا رَأْسُهُ مِنْحَدْرًا مِنْ مَرْقَبٍ عَالٍ
ومن الخَمَارِينَ مَنْ يُتَسَبَّبُ إِلَى السُّودِ مِنْ أَوْلَادِ حَامٍ:

إِلَى بَيْتِ خَمَارٍ أَفَادَ زِحَامُهُ لَهُ ثَرَوَةٌ وَالْوَجْهُ مِنْهُ بِهِيمٌ^(٣)
وواضح مما تقدم أن أبا نواس لا يكاد يترك جانباً من الخَمَارِ إلا ألم به إلاماً كافياً من ديانته إلى جنسه إلى لونه إلى سنه إلى جماله وغير ذلك من أحواله وملابساته.

- مجلس الخمر:

لمجلس الخمر في خمريات أبي نواس اهتمام خاص سواء من حيث عناصره البشرية من ندمان وسقاة وساقيات ومغنين ومغنيات أو من حيث عناصره المادية كأدوات الخمر من زقاق وجرار ودنان وبواط ودوارق وقوارير، هذا إلى ما يجري على جميع هذه العناصر من أحوال وملابسات، على أن الغالب أن تنعقد مجالس الخمر حيث تجمع بين لذة الشراب وجمال المشهد ومتعة الحب فهذا هو المثلث الجمالي عند أبي نواس والذي كان يشكل الجو العام لنظم الشعر. يذكر ابن «عبدربه»: أن أبا العتاهية التقى بأبي نواس (فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تؤتى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يُقال إلا على هكذا...)^(٤).
هذه هي البيئة الصالحة التي كانت تمنح أبا نواس غاية ما كان يصبو إليه من شعر وخمر أو خمر

(١) ديوان أبي نواس ص ٦٩٣ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٤٣.

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٣١.

(٤) العقد الفريد ٣٢٦/٥، وانظر أيضاً أخبار أبي نواس، لابن منظور ٥٥/١.

وشعر لأنهما قرينان عدلان، ولأن الخمر هي حياة الشعر والشعر هو وحي الخمر عند أبي نواس فمجالسه الخمرية هي التربة الخصيبة الصالحة لإنبات ورعاية بذرة الشعر في نفسه.

هذا، ونستطيع أن نحدد ثلاث بيئات خمرية كانت تنعقد فيها مجالس أبي نواس هي الحانات أو الخمرات والبساتين أو المتنزهات، والبيئة الثالثة هي الأديرة. لكن الواقع أن خمرات أبي نواس تقدمها في صورة متشابهة لاشتمالها جميعاً على نفس العناصر والأجواء والأشخاص (مع اختلاف الألقاب أو الصفات) التي كان لا بد أن يلتئم عليها المجلس الخمري النواصي، وهكذا فسنتقصر في حديثنا على الأديرة لمكانتها المتميزة في نفس أبي نواس وخمره وشعره لا في مجالسه الخمرية فحسب وإنما في خمرياته عامة. هذا، وتختلف الأديرة باختلاف مواضعها (فمنها ما تسنم قمم الجبال أو ما توسد ضفاف الأنهار، ومنها ما اقترب من المدن والأرياف أو ما انفرد في البراري والقفار^(١)). وقد يسمى الدير «العمر» بالضم والفتح^(٢)، ومن ملحقات الدير الكنيسة والهيكل والقلالي أو القليات (مفرد قلية أو قلاية أي الصومعة) وبيوت المائدة ومستودعات الخمر ومعاصر الكروم والحانات ودور الضيافة وحجر الرهبان وحجرة رئيس الدير^(٣) وكان الدير أشبه بمستعمرة مستقلة بحياتها الاقتصادية والاجتماعية^(٤)، وربما كانت الكروم أكثر المزروعات حظاً من عنايتهم مما أكسب خمور الأديرة شهرة واسعة، حتى كان الوليد بن يزيد يقصد من دمشق «دير حنة» في نواحي الحيرة^(٥) لشهرته بالخمر الجيدة وشهرة خمّاره «مرعبداً» بالنظافة وحسن الخدمة، كما كان النعمان بن المنذر من قبل يركب كل يوم أحد ومعه أهل بيته وخاصته إلى دير اللج^(٦) وكذلك كانت القوافل تحط في تلك الأديرة رحالها ومثلها المسافرون فتقوم على خدمتهم جميعاً مقام الفنادق^(٧)، كما أقام الخمارون حاناتهم من حول هذه الأديرة^(٨) لاجتذاب أهل الخلاعة والمجون من الشعراء

(١) الديارات للشابشتي ص ٣١ (المقدمة)، وانظر أيضاً معجم البلدان، لياقوت، (الدين).

(٢) القاموس المحيط (العمر).

(٣) الديارات وملحقاتها: مجلة الرسالة - العدد ٧١٣، ص ٢٥٢ سنة ١٩٤٧م.

(٤) تطور الخمرات في الشعر العربي ص ١٧٩.

(٥) المسالك والممالك للعمري ص ٣٢١.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٦.

(٧) المسالك والممالك للعمري ص ٣٠١، والديارات ص ٢٣.

(٨) الديارات ص ١٥٠.

وغيرهم ، فأقاموا بذلك سوقاً للطرب والغناء والرقص^(١) ، وهذا مما جعل لتلك الأديرة دوراً بارزاً في مجالس أبي نواس الخمرية فترددت أسماء العديد منها في خمرياته منها «دير حنة» وكان من أنزه الأديرة لكثرة بساتينه وتدفق مياهه^(٢) ولأبي نواس فيه الخمرية:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصحُ عنك فإني لست بالصّاحي^(٣)
 ودير «الزندوردة وهو بالجانب الشرقي من^(٤) بغداد وفيه يقول أبو نواس:

فسقني من كروم الزندوردِ ضحى ماء العناقيدِ في ظلّ العناقيدِ^(٥)

ومنها أيضاً دير «سرجس» وسماه ياقوت دير سرجس وبكس وقال إنهما رجلاان . ويقول عنه الشابشتي : (وكانت أرضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر . . .)^(٦) وبعد خرابها ظلت بقايا من قباب تسميها الناس معصرة أبي نواس أو قباب أبي نواس^(٧) وله فيها قوله :

قالواتنسك بعد الحجّ قلت لهم أرجو الإله وأحشى طيرنا بأذا

وأما دير الغادر فقد سُمي بهذا الاسم لفضيحة غدر فيها راهب الدير بأبي نواس^(٨) ومنها أيضاً «ديارات الأساقف»^(٩) بظاهر الكوفة وهي قباب وقصور وبها نهر يُعرف بالغدير عن شماله يقع الدير وهو قصر عظيم من أبنية ملوك لخم وفيه يقول أبو نواس يذكر أيامه بالدير:

عدن لي بالدير أيام قصفٍ وسرورٍ مع الندامى وعزفٍ^(١٠)
 وعيونُ الظباءِ ترنو إلينا منعماتٍ بكلِّ برٍّ ولطفٍ
 ورخيماً الخطاياكاد من الرقة يذمي أديمه كلُّ طرفٍ
 حلّ منه الصليبُ في موضعٍ الجيدِ فقد خصّه على كلِّ إلفٍ

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ١٨٥ .

(٢) المسالك والممالك ٣١٩/١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ٣١١/١ . ومعجم البلدان (دير حنة) .

(٤) معجم البلدان (دير الزندورد) ، والروض السعطار ص ٢٥٤ .

(٥) الديارات ص ٢١٥ .

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٥٠ ، المسالك والممالك للعمري ص ٢٨٤ .

(٧) معجم البلدان (دير سرجس وبكس) . (٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) الديارات ص ٢٥٢ . (١٠) المصدر السابق نفسه ص ١٥٣ .

وَأَذْرْنَا رَحَى النَّعِيمِ ثَلَاثًا وَوَصَلْنَا النَّعِيمَ كَفَاءً بِكَفِّ

وأهم ما في هذه المقطوعة تسميتها الخمر بالنعيم تعظيماً لها وإكباراً.

ومن الأديرة المنصوص عليها في خمريات أبي نواس «عمر مريونان» بالضم^(١) وقيل بالفتح والضم^(٢) ويقع بالأنبار. يصفه الشابشتي بالجمال والحسن وبكثرة قلاياته ورهبانه وهو محكم البناء كأنه حصن وقد أكثر الشعراء من ذكره ومنهم أبو نواس حيث يقول في خمرية معروفة:

آذْنِكَ السَّاقُوسُ بِالْفَجْرِ وَغَرْدُ الرَّاهِبِ فِي الْعُمْرِ^(٣)

ومن الأديرة التي ألم بها أبو نواس في بلاد الشام «دير فيق» المنقور في الحجر والواقع بين مدينة فيق وبحيرة طبريا ويزعم النصارى أنه أول دير عمِل للنصرانية وأن المسيح كان يأوي إليه ومنه دعا الحواريين. ولأبي نواس في هذا الدير قصيدة طريفة يخاطب بها غلاماً نصرانياً كان يهواه وقد ملأها بالإشارات والأسماء النصرانية وفيها يقول:

وَبِالْحُسْنِ الْمَرْكَبِ فِيكَ إِلَّا رَحِمْتَ تَحَرَّقِي وَجَفُوفَ رَيْقِي^(٤)
أَمَّا وَالْقَرَبِ مِنْ بَعْدِ التَّنَائِي يَمِينِ فَنَى لِقَائِهِ عَشِيقِ
لَقَدْ أَصْبَحْتَ زِينَةَ كُلِّ دَيْرٍ وَعِيدٍ مَعَ جَفَائِكَ وَالْعُقُوقِ
وَأَذَعَنْ عَاشِقُوكَ إِلَى النَّصَارَى مِنَ الْإِسْلَامِ طَرَأَ بِالْمُرُوقِ

ومن ديارات الشام أيضاً «دير الرصافة» الذي كان منتجعاً لبعض خلفاء بني العباس^(٥). والظاهر أن أبا نواس مرَّ بهذا الدير أثناء رحلته المصرية من غير أن يطيل المكوث فيه فلما رحل عنه قال:

لَيْسَ كَالدَّيْرِ بِالرُّصَافَةِ دَيْرٌ فِيهِ مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَتَهْوَى^(٦)
بَتَهُ لَيْلَةً فَقَضَيْتُ أَوْطَا رَأَى، وَيَوْمًا مَلَأَتْ قُطْرِيهِ لَهْوَا

هذا، ويعتبر «دير ديماس» من أشهر الديارات الشامية ونسبته إلى نهر ديماس ويقع بين دمشق

(١) الديارات، للشابشتي، ص ١٦٦.

(٢) لسان العرب (عمر).

(٣) ديوان أبي نواس، ط. أصاف ص ٢٧٦.

(٤) الديارات، للشابشتي ص ١٣٢، والفكاهة والانتناس في مجون أبي نواس ص ٨٠-٨١.

(٥) المسالك والممالك ص ٣٣٣.

(٦) معجم البلدان لياقوت (دير الرصافة).

وحمص في رياض وبساتين يذكر العمري^(١) أن أبا نواس لما دخل حمص في رحلته المصرية دعاه بعض أدبائها إلى هذا الدير ومعه أشجع السلمي فجلسوا يتناشدون الأشعار كما نعرف أن أبا نواس زار في حمص الشاعر ديك الجن أيضاً.

وبعد هذا العرض لجملة الأديرة التي ألمّ بها أبو نواس نحس أنه قد حان الوقت لنثبت بصورة عملية صدق ما ذهبنا إليه في مستهل هذه الكلمة عن مجالس أبي نواس الخمرية ما كان منها في دير أو حانة أو بستان.

ففي الخمرية التالية، التي لا يتجاوز عدد أبياتها أحد عشر بيتاً، صورة واضحة لمجالس خمري في دير بهراذان ليس من بين الأديرة التي أشرنا إليها^(٢) وهو مجلس له بداية وله نهاية، لولا نص أبي نواس على اسم الدير في البداية لما عرفنا أن المجلس التأم في دير، وأما النهاية فهي، كما سنرى عند عرضنا لبعض المجالس الأخرى، تكاد تكون واحدة:

بدير بهراذان لي مجلس	وملعب وسط بساتينه ^(٣)
رحت إليه ومعني فتية	نزوره يوم سعانينه
بكل طلاب الهوى، فاتك	قد أثر الدنيا على دينه
حتى توافقنا إلى مجلس	تضحك ألوان رياحينه
والنرجس الغض لذي ورده	والورد قد حفت بنسرينه
وجيء بالذن على مرفع	وخاتم العلج على طينه
وافتصد الأكل من دننا	فانصاع في حمرة تلوينه ^(٤)
وطاف بالكأس لنا شادن	يذميه مس الكف من لينه
يكاد من إشراق خديه أن	تخطف الأبصار من دونه ^(٥)
فلم نزل نسقى، وللهوبه	ونأخذ القصف بأينيه ^(٦)

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١/ ٣٣١.

(٢) هذا الدير لم يذكره الشابستي في «الديارات» ولا ياقوت في «معجم البلدان» ولا ابن فضل الله العمري في «مسالك الأبصار» كما لم يذكره أيضاً كي لسترنج في «بلدان الخلافة الشرقية».

(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٨٣.

(٤) افتصد الأكل: شق. والأكل عرق في الذراع. انصاع: انصب.

(٥) تخطف الأبصار: تستلب من شدة الوهج. (٦) الأبين: القانون (معربة).

حتى غدا السُّكرانُ من سُكرِهِ كَالْمَيْتِ فِي بَعْضِ أَحْيَانِهِ

أول ما يلقانا من هذا المجلس فتنة أبي نواس بالطبيعة فقد وافى الدير في يوم من أيامه المشهودة هويوم عيد الشعانين الذي كان الاحتفال به أشبه بالمهرجانات والمواسم التي يخرج فيها الناس للترفة والفرجة وكذلك كانوا يفعلون في غيره من الأديرة كدير الأعلى الذي اجتاز به المأمون فأقام فيه وكان مهرجان عظيم للرقص والغناء والشراب والطرب^(١) ومثل ذلك ما يذكره «ابن فضل الله العمري» عن الاحتفال بهذا اليوم في دير ميخائيل^(٢) ودير الاسكون أيضاً^(٣) وكان الناس يتداعون إلى موسم الشعانين لما ييسره لهم الموسم حيث يشاهدون (من النساء والوصائف والولدان في الحلبي والحللي)^(٤) ما لم يروا مثله قط فلم يزل الواحد منهم كما يحكي عن الثرواني (يعبث ويتعرض ويقبل ويعانق . . . فما أحد ينكر عليه فعله)^(٥).

أبو نواس إذن مثل غيره من طلاب الهوى والشراب يتخذ من احتفال ديني مناسبة لمهرجان سعادة ومسرة قارناً الشراب بما يلزمه من نرجس غض وورد ونسرين . وما أن يرفع الخمار العليج دونه المحتوم على مرفقه حتى يبادر إلى بزله وكأنه يفتصد عرق الأكل في جسم بشري فيتدفق الخمر كتدفق الدم، ويكون الساقى الشادن في نعومته وطراوته تمام الفتنة والسعادة .

هذا، وقد يصعب حصر الأماكن التي كانت تعقد فيها مجالس أبي نواس الخمرية لأنها كثيرة ولأن حياة أبي نواس لم تكن إلا جلسة خمرية متصلة ومع هذا فلا يفوتنا أن نسمي بعض الأماكن المشهورة التي وردت في خمرياته والتي كان يكثر من التردد عليها . منها «باطرنجي» في قوله :

- وِبَاطِرُنْجِي فَالْقَفْصُ ثَمَ إِلى قُطْرُبْلَ مَرَجَعِي وَمُنْقَلَبِي^(٦)
- رَأَيْتَ عِلْجَا بِيَاظِرُنْجَا لَهَا تَوَجَّى فَلَمْ يَكُنْ^(٧).

ومن الأماكن، أو المتنزهات التي تردد كثيراً في شعره قطربل وقبة الفرق وكلواذا والصالحية والكرخ وطيرناباذ وقد أجملها في المقطوعة القصيرة التالية :

(١) الديارات للشابشتي ص ١١٢، ١١٣ .

(٢) المسالك والممالك ص ٢٩٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣١٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٣١٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣١٥ .

(٦) ديوان أبي نواس ص ٣٤٦ ط . أصاف ، وأخبار أبي نواس ، لابن منظور ٦٧/٢ ، توجى : من وجأه بالسكين أو

بيده . وتوجأه : ضربه في أي موضع كان .

وقائل هل تريد الحج، قلت له
 أما وقطرل منها بحيث أرى
 فالصالحية فالكرخ التي جمعت
 فكيف بالحج لي ما دمت منعمساً
 وهبك من قصف بغداد تخلصني
 نعم إذا فنيت لذات بغداد^(١)
 فقبه الفرك من أكناف كلواذ
 شذاذ بغداد ما هم لي بشذاذ
 في بيت قوادة أو بيت نباد
 كيف التخلص لي من طيرناباذ

واضح أن أبا نواس لم يكذب يترك حانة أو حانوت خمر في بغداد وما حولها من أرباض وضواح وريف إلا ألم بها وجميعها أماكن مشهورة للهو والعبث، كانت مألفاً للشعراء والمجان وربما عاد بعضها إلى عصور حضارية قديمة منها «بنا» في قول أبي نواس:

ما أبعد النسك من قلب تقسمه
 قطرل فقري «بني» فكلودا^(٢)
 ومنها «بوري» و«الجوسق» حيث يقول:

ولا تركت المدام بين قري
 الكرخ فبوري فالجوسق الخرب^(٣)

ومنها «كنارك» وتقع قرب البصرة ويذكر «ياقوت» أن السلطان قد منع منه لأشياء كانت تجري فيه مما ينكرها والظاهر أن أبا نواس كان كثير التردد عليه مع إخوانه فقال:

أنا بالبصرة داري وكنارك مزار^(٤)
 إن فيها ما تلذ العين من طيب العقار
 وغناء وزناء ولواط وقمار

وأيضاً «القفس» وإلى هذا المتنزه عزم الأمير عيسى بن أبي جعفر المنصور^(٥) أبا نواس للإقامة أسبوعاً نظماً على أثره خمريته المعروفة:

يا طيننا بقصور القفس مشرقة
 فيها الدساكر والأنهار تطرد^(٦)
 والظاهر أن «القفس» من المتنزهات التي كان أبو نواس يألفها مع الأصدقاء. يذكر ابن

(١) ديوان أبي نواس ص ١٦٧ ط. الغزالي.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٦ ط. الغزالي، وط. آصاف ص ٢٧٢.

(٣) معجم البلدان «بوري».

(٤) معجم البلدان «كنارك».

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ٤/١. (٦) ديوان أبي نواس ص ٢٦٧ ط. آصاف.

منظور^(١) أن آل نوبخت دعوا أبا نواس إلى القفص في أول يوم من أيام شعبان فلما علم بأن هلال شعبان لم ير بعد وكان هم بالرجوع، عاد فأمضى يومه بأوفر الحظوظ من اللهو:

لو شئتَ لم نَبْرَحْ من القَفْصِ نَأْخُذُهَا صَفْرَاءَ كَالجِصِّ
نَسْرِقُ هَذَا اليَوْمَ من شَهْرِنَا فَرِّمَّا يُعْفَى عَن اللُّصِّ

ومنها «ساباط» المدائن في الجانب الغربي من دجلة وكان بها سجن كسرى وفي «ساباط» قال أبو نواس قصيدة هي عند الجاحظ أفضل ما قال من شعر وهي:

وَدَارِ نَدَامِي عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا بِهَا أَثْرَ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ^(٢)

وأيضاً مدينة «نصيبين» من ديار ربيعة بين دجلة والفرات وهي قديمة عظيمة كثيرة الأنهار والجنات والبساتين يذكرها أبو نواس بقوله:

طَابَتْ نَصِيبِينَ بِي يَوْمًا وَطَبَّتْ بِهَا يَا لَيْتَ حَظِّي مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِينَ^(٣)

وبهذا العرض نكون قد تبينا أية أرجاء شاسعة من المتنزهات والحانات والأديرة كان أبو نواس يجوس خلالها باحثاً عن لذة الشراب وجمال المشاهدة ومتعة الحب. على أن لمجلس الخمر عناصره البشرية وأخرى المادية وقد تحدثنا عن الخمار الذي مهدنا به للحديث عن مجلس الخمر وأن تكن مشاركته في المنادمة أو المجلس ليست مؤكدة دائماً نظراً لعلبة الصفة التجارية عليه في كثير من الأحيان، في حين يعتبر الساقى والنديم من أهم عناصر المجلس البشرية الجديرة بالاهتمام وتأتي بعدهما أدوات الخمر وأوعيتها وأوانيتها التي أولاها أبو نواس عناية خاصة.

الساقى:

للسقي عند العرب تقاليد قديمة يروي «كشاجم» أن الرسول عليه الصلاة والسلام سقى غلاماً حديث السن كان عن يمينه قبل رجل من مشيخة أصحابه كان عن يساره قائلاً: الأيمن فالأيمن^(٤). وفي إدارة الكأس على اليمين يقول عمرو بن كلثوم:

صَدَدْتُ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا الِيمِينَا

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٩/١.

(٣) الروض المعطار ص ٥٧٧.

(٤) أدب الندماء ولطائف الظرفاء، لكشاجم، ص ٤٠.

ويقول الوليد بن يزيد:

أدُر الكأسَ يمينًا لا تُدرُهَا لَيْسَارٌ^(١)

وهذا يعني أنه كان للعرب منذ عهد مبكر تقاليد مرعية في آداب المائدة من شراب وطعام^(٢) من أجل هذا حظي ساقى الخمر منذ العصر الجاهلي باهتمام خاص من الشعراء^(٣) أكثر مما حظي الخمار كذلك تأثر العرب بمن حولهم من الأمم - خاصة المعروفة منها بالإدمان على الخمر كالفرس - في آداب المنادمة وهكذا ألف الجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» الذي يدور حول التقاليد والآداب التي يجب مراعاتها عند الملوك من منادمة ومطاعمة وفيما يجب أن يتحلى به نديم الملك من صفات. ولهذا وجدنا للساقى في خمريات أبي نواس أهمية تفوق أهمية الخمار لأنه يضطلع بالدور الأجل دائماً والأدنى إلى النفوس. وصورته مشرقة تبعث على الانبساط والانشراح في حين ربما غلب على مهمة الخمار التجارة والمكاس وكثيراً ما وصفه أبو نواس بالعلاج والأشمط والكافر والبخيل. أما الساقى فدائماً أما غلام خنت أو جارية غلامية من الوصائف المقرطقات المشبهات بالغلمان رشاقة وخفة كقول أبي نواس:

من كَفِّ ذاتِ حِرِّ، في زِيٍّ ذَكَرٍ لها مُحبَّانِ لِيُوطِيَّ وِزْنَاءُ^(٤)

ومن شروطهم في الساقى أن يستأذن جلساءه في المزج وعدمه^(٥). وهكذا تجاوزت علاقة أبي نواس بالساقى دور المهمة إلى غاية المتعة، وقد أمكننا رصد ثلاثة جوانب وقف عندها أبو نواس من علاقته بسقاة مجالس الخمر هي جانب العمل الرسمي، والجانب الجمالي حيث يمدنا أبو نواس بوصف دقيق شامل لزي الساقى وملابسه وخضابه وطريقة تصفيف شعره وبنه وجنسه ولونه وموطنه، والجانب الثالث هذه العلاقة الشاذة التي كانت تربطه بفئة السقاة، وهكذا حفلت خمريات أبي نواس بهذا الزخم الشعري سواء تدنى به إلى موجدة الرغبة الجامحة أم تسامى به إلى صدق الوجد الشعري ولقد بلغ من دقة وصفه لمهنة الساقى أن الرشيد طلب إلى كاتبه إسماعيل بن صبيح أن يلتمس له ساقية مليحة فطنة مقدودة شكلة حلوة. . . (تسقينى فإن الشرب من يد مثلها يطيب، فقلت: يا سيدي على الجهد فقال: اجعل في هذا قول العيار أمامك يريد أبا نواس)^(٦).

(٢) فصول التماثيل ص ٧٣.

(١) ديوان الوليد بن يزيد ص ٤٨.

(٤) قطب السرور ص ٣٨٣، ٣٧٩.

(٣) ديوان الأعشى ص ٤٧، ٥٩.

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ٨/٢.

(٥) حلبة الكميت ص ١٦١.

مِنْ كَفِّ سَاقِيَةِ نَاهِيكَ سَاقِيَةً
كَانَتْ لِرَبِّ قِيَانٍ ذِي مُغَالِبَةٍ
فَقَدْ رَأَتْ وَوَعَتْ عَنْهُنَّ وَاخْتَلَفَتْ
حَتَّى إِذَا مَا عَلَى مَاءِ الشَّبَابِ بِهَا
وَجُمِّسَتْ بِخَفِيِّ اللَّحْظِ، فَانْجَمَسَتْ

واضح إذن أن مهمة الساقى مزدوجة، واجب يؤدي وخصوصية تجتني، مهارة مع حذق في المهنة المنوطة به، إلى جانب إمتاع ومؤانسة.

وهذا ساق آخر أحور العينين قد فاق البدر حسناً وبهاء فكانه مسروق من جنان الخلد، ومع ذلك فلم يمنعه سحر جماله من النهوض بواجبه على خير وجه بهمة ونشاط، فما أن يفعل ذلك حتى يتحول إلى نديم مسعد^(٢)...

يَسْقِيكَهَا أَحْوَرُ الْعَيْنِينَ ذُو صُدْعٍ
مَا الْبَدْرُ أَحْسَنُ مِنْهُ حِينَ تَنْظُرُهُ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهُ حِينَ تَبْصُرُهُ
مَا زَالَ يَمْزُجُهَا طَوْرًا وَيُشْرِبُهَا
ثُمَّ تَغْنَى وَقَدْ دَارَتْ بِهَامَتِهِ
إِنَّ الْخَلِيلَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فَافْتَرَقَا

وفي مقطوعة أخرى لا يكاد أبو نواس يمر بمهمة الساقى منوهاً بمهارته وحذقه لصنعتة حتى يشيد بكمال خلقة هذا الساقى معبراً عن سعادته لمجونه ممتدحاً جماله من انقطاع الردف، والحشا الهضم، والهور في العينين مع الفتور ومن تضميح شعره بالطور وتصنيفه على هيئة العقرب على الصدغ مثلما كان يصنع الغلمان والجواري في ذلك العصر^(٤):

يَسْقِيكَهَا مُخْتَلَقٌ مَا جِنُّ مَعَوْدٌ لِلْسَّقِيِّ نَحْرِيرٌ^(٥)

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٢ ط. الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٠ .

(٣) صدع: جمع صديع وهو ثوب يلبس تحت الدرع .

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/٢٣١، لآدم متر .

(٥) ديوان أبي نواس ص ١٤ ط. الغزالي .

مُنْقَطِعُ الرَّدْفِ هُضِيمُ الْحَشَا أُحُورٌ فِي عَيْنِيهِ تَفْتِيرُ
قد عَقْرِبَتْ رَابِيَةً صُدَّغَهُ فَالْصُّدُغُ بِالْعَنْبِرِ مَطْرُورُ

والظاهر أنه كان للساقى حكمه على المتنادمين في توزيع الخمر خاصة إذا كان يملك سلطان

الجمال :

لا نَسْتَخْفُ بِسَاقِينَا لِعِزَّتِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ حَكْمَهُ أَحَدٌ^(١)

ومن أجل هذا كان حكم الساقى على شراب خمره ومعاقريها حكماً غير مردود، فهو صاحب سلطان على ندمانه لجماله أولاً الذي يسطو به على أولئك الندمان ولأن حكمه موصوف بالعدل :

يَوْمَ الْخَمِيسِ أَقْمَنَا سَاقِيًا حَكْمًا نَرَى حُكُومَتَهُ عَدْلًا وَمَا زَعَمًا^(٢)

والعدل بالمفهوم النواصي هو الاستجابة لرغبته :

يَا رَبِّ لَيْلٍ بَتٍ فِي نَعْمَةٍ عِنْدَ فَتَى أَبْيَضَ بَسَامٍ^(٣)

بِجَنْبِ سَاقٍ حَسَنٍ وَجْهَهُ فِي السَّقْيِ عَدْلٍ غَيْرِ ظَلَامٍ

قَدْ بَاتَ يَسْقِينِي دِرْبَاقَةً سَأَلْتُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ فِي الْجَامِ

ودائماً نحس بهذه الازدواجية في مهمة الساقى موزعة بين سحر الحب وفعل الخمر إلى الدرجة

التي جعلت أبا نواس يشعر بالسعادة حين أوماً إليه الساقى بإشارة من عينيه ممناً إياه بالوصال فكانت تلك الأمنية ألد وأطيب من الخمر :

يَدُورُ بِهَا سَاقٍ أَغْنُ تَرَى لَهُ عَلَى مُسْتَدَارِ الْأُذُنِ صُدْغًا مُعْقِرًا^(٤)

سَقَاهُمْ وَمَنَانِي بَعَيْنِيهِ مُنِيَّةً فَكَانَتْ إِلَى قَلْبِي أَلْدَّ وَأَطْيَبَا

ولأبي نواس خصوصية من دون الندمان، إذ له نشوتان الخمر والحب ولغيره نشوة واحدة هي

نشوة الخمر فإذا سكر الندمان مرة سكر هو مرتين :

تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَمْرًا وَمِنْ يَدِهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرِينَ مِنْ بُدٍّ^(٥)

(١) ديوان أبي نواس ص ٨٠ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٢٥ ط . الغزالي .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٤٥ ، وط . آصاف ص ٣٣٠ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٢ ط . الغزالي .

(٥) نفسه ص ٢٧ .

لي نشوتانٍ ولنُذمانٍ وَاِحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي
 أكثر من هذا وجدنا أبا نواس يقيم ما بين الساقى والخمر نوعاً من المنافسة الضمنية أيهما أقدر
 على الفوز باهتمام الشاعر وأقوى على إبعاده أنشوة الحب أم نشوة السكر وذلك حين يصرح بأنه نازع
 ساقيه خمراً تضيء كالبرق أو النار على ما يفيد لفظ نازع من خصوصية الاستعمال الأدبي الذي
 يرجع معنى على معنى وهكذا تجاوز الساقى مهمة السقي إلى المنادمة:

ومهفهفٍ يجري الوشاحُ بخصره وَيَضِيقُ عَنْهُ دُمْلُجٌ وَسُوارٌ^(١)
 نازعته صهباء تحسب أنها بَرِقُ تَأَلَّقَ ضَوْءُهُ أَوْ نَارُ

وربما وضع أبو نواس الخمر والساقى في كفتي ميزان من غير رجحان أحدهما على الأخرى:

ترى الكأس في كفّ المدير كأنها على راحتيه كوكب الدبران^(٢)

والظاهر من هذا البيت ومن غيره من النصوص القديمة أن المدير غير الساقى وإن كان لا يظهر
 ذلك دائماً... حتى إذا جاء دور الساقى ظهرت مهمته المتميزة المثيرة للتساؤل والتفكير:

إِذَا شَجَّهَا السَّاقِي بِمَاءٍ رَأَيْتَهَا مُكَلَّلَةَ الْأَعْلَى بِطَوِّقِ جَمَانٍ
 وَقَدْ دَارَ سَاقِيهَا بِهَا ذَا قُرَاطِي تَنَاطُ بِأَعْلَى سَاعِدٍ وَبِنَانٍ
 فَيَأْخُذُ مِنْهَا لَوْنُهُ بَعْضَ لَوْنِهَا فَلَوْنَاهُمَا فِي الْخَدِّ يَطْرِدَانِ

وهكذا فاقتران الساقى والخمر في التعبير الشعري لا يقل عن اقترانهما في الواقع لأن أبا نواس
 يضاعف باقترانهما دلالة كل منهما على انفراد ودلالتهما مجتمعين إلى الدرجة التي فيها يرى الموت
 إذا ما أزال الساقى عنه الكأس لترتد إليه حياته إذا ردها عليه:

أموت إذا أزال الكأس عني وأحيا من يديه إذا سقاني^(٣)

وهو والكأس شمسان، أو لنقل أن الساقى يحمل شمسين واحدة بكفه هي كأس الخمر والأخرى
 بوجهه هي بهاؤه وحسنه.

شمسُ المُدام بكفه وبوجهه شمسُ الجمالِ فبيننا شمسان^(٤)

(١) قطب السرور ص ٣٨٦.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٨٥ ط. الغزالي، وص ٣٤٣ ط. آصاف.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٤٢ ط. آصاف. (٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٤٤.

أبو نواس يضع أمامنا دائماً الساقى والخمر بنفس الدرجة من الاهتمام والتعامل فالغيبوبة التي تعتره مثل غيبوبة سكرة الخمر، لأنه معتاد على الجمع بينهما، أو هو صاحب نشوتين، الحب والسكر:

وقائلٍ لي أفقُ يوماً فقلتُ له من سكرةِ الحُبِّ أو من سكرةِ الكأسِ (١)
لا أشربُ الرّاحِ إلا من يدي رَشاً مُهْفَهفٍ كقضيبي البانِ مَيَّاسِ
قلِّ للذي لام فيه هل ترى كلفاً بأمّ ملحِ النَّاسِ إلا أمّ ملحِ النَّاسِ
وكما حاول أبو نواس في حديثه عن الخمارين أن يقفنا على كل ما يتصل بأشخاصهم وأحوالهم كذلك يفعل الشيء نفسه مع السقاة فمنهم الفارسي من أبناء كسرى:

وساقٍ غريرِ الطرفِ والبدلُ فاتنٍ ربيبِ ملوكِ كان والدُّهم كسرى (٢)
أو أحدِ الغلمانِ المولدين من جنانِ الخلدِ:
لا شيءٌ أحسن منه حين تبصره كأنه من جنانِ الخلدِ قد سُرِقاً (٣)
أو هو أشبه بأبناء الخلفاء في بهائه ورونقه:
يُدِيرُها هاشميُّ الطرفِ معتدلاً أبهى إذا ما مشى من طاقةِ الآسِ (٤)
مع الأدب الجم وحسن المعاشرة:

مزج الكأسِ لي غزالٌ أديبٌ هاشميُّ أصاب فيها المزاجاً (٥)
وربما نسب الساقى إلى الأعراب في تمنعه وتأبيه وسطوته:
كانه كلما حاولتُ نائله ذو نخوةِ ناشيءٍ بين الأعرابِ (٦)
يسطو عليّ بحسنٍ لت أنكره يا من رأى حملاً يسطو على ذيبِ

(١) قطب السرور ص ٣٨٣ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ١١٩ ط . الغزالي .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٧٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٦٣ .

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٧٦ .

وقد ينسبه إلى بني الأصفر:

وغزالٍ من بني الأصفر معصوبٍ بتاجٍ^(١)
شخصه منى بعيدٌ وهواه كالمناجي

أو أنه عبادي نصراني:

يسقيكها من بني العبادِ رشاً منتسبٌ عيدهُ إلى الأحدي^(٢)
إذا بنى الماء فوقها حباً صلَّب فوق الجبين بالزبدِ
أو هو منتسب إلى أولاد يافث:

يسعى بها من ولدِ يافثٍ أحورٌ كقضيبي بان فوق دِعْصِ نقاءِ^(٣)
وبهذا نكون قد وقفنا على عنصر من أهم عناصر مجلس أبي نواس الخمري بكل أبعاده الخمرية
وهو الساقية خاصة حين كان أبو نواس يقيم ما بينه وبين الخمر نوعاً من الموازنة أو المماثلة أو
المنازعة يقف هو على الطرف الآخر ممسكاً بخيط الموازنة أو المقارنة بينهما.

الندمان:

هم جماعة مجلس الخمر الذي سماه بعض الكتاب مجلس المدام^(٤) أو مجلس الشراب^(٥)
وفي معنى النديم قيل (إن العرب إنما سمت النديم نديماً لأنه يندم على فراقه . . .)^(٦)، (لوجود
الراحة والأنس، وإما لأنه يندم على ما يتكلم به في حال سُكره)^(٧).

ولما كان الندمان لا يجتمعون عادة إلا للاستكثار من اللذات أصبح لمجلس المدام أو الشراب
صفات عرف بها، كما أصبح للمتندمين شروط وقواعد لا بد لهم من مراعاتها لأن مجلس المدام
(مجلس حرمة وداعية أنس ومسرح لبانة ومزادهم ومرتع لهو ومعهد سرور . . .)^(٨).

(١) ديوان أبي نواس ص ٥٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٥٢ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٠٤.

(٤) زهر الآداب ١/٤٤٩.

(٥) حلبة الكميت ص ٢٩.

(٦) أدب الندماء ولطائف الظرفاء لكشاجم ص ٣.

(٧) حلبة الكميت ص ٢٥، وقطب السرور ص ٢٨٥. (٧) زهر الآداب ١/٤٤٩.

ومن شروطه أن يجتمع (من الندمان مَنْ اتصف بالحدق واليقظة والأشعار والأدب والنوادر وأنواع المغنى والطرب فيكون للمحدث نوبة وللغناء أخرى)^(١). ومعنى هذا أن النديم لا بد أن يكون واسع الاطلاع ملماً بجملة من الثقافات والمعارف تلحقه بالأدباء^(٢) ولكن هذه الشروط كما يظهر ليست عامة في جميع مجالس المدام إذ هناك فرق جوهري بين مجالس الشراب الإخوانية بندمائها من النظراء، وبين مجالس الشراب في حضرة الملوك أو الرؤساء كما يرسمها لنا الجاحظ^(٣) وغيره فمن آداب المنادمة في مجالس النظراء (إطراح التكلف وما يؤدي إلى حصر وضيق)^(٤) أو كما يقول ابن المعتز (المناصفة وترك التحفظ... وترك الأدب عند مَنْ لا تحشمه)^(٥) ولكن منادمة العظماء (شرائطها أكثر من منافعها...)^(٦) وهي (شرائط صعبة ومسالك ضيقة ينقبض الخاطر عند سماعها فضلاً عن مشاهدتها وعيانها)^(٧). من أجل هذا وجدنا أبو نواس لا يصير على منادمة هؤلاء العظماء حتى (كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهد...)^(٨).

وهكذا كان ندماء أبي نواس هم من طبقة النظراء لا من فئة العظماء، وفي هذا يقول أبو نواس:

لا خيرَ في العيشِ إلا بالمُدَامِ مع الـ أَكْفَاءِ في الوردِ والخيرِ والأسِ^(٩)
 ومُسمعٍ يتغنى والكؤوسُ لها حثُّ علينا بأخماسٍ وأسداسٍ
 والأكفاء هم النظراء الذين كانت الألفة بينهم سائدة مع (قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة في الشراب والتغافل عن رد الجواب، وإدمان الرضا... وستر العيب، وحفظ الغيب)^(١٠)؛ وفي هذا يقول أبو نواس منوهاً بتألف ندمائه الذين يسميهم الفتيان مشيداً بتوادهم وتعاطفهم وتحابهم وكرم أخلاقهم وسلامة أعراضهم:

سقياً لمجلسِ فتيانٍ أنادِمُهُم ما في أديمِهِم وهَيّ، ولا خَلَلٌ^(١١)
 هذا لذاك كما هذا وذاك لَذَا فالشملُ منتظمٌ والحبلُ متّصلٌ

(١) حلبة الكميت ص ٢٩.

(٢) الحان الحان ص ٢٥٣. (٣) التاج في أخلاق الملوك ص ٢٩ وما بعدها.

(٤) حلبة الكميت ص ٢٦. (٥) فصول التماثيل ص ٧١.

(٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٧١. (٧) حلبة الكميت ص ٢٦.

(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٠٢. (٩) ديوان أبي نواس ص ١٤٠ ط. الغزالي.

(١٠) زهر الأدب ١/٤٤٨، وقطب السرور ص ٢٩٦. (١١) ديوان أبي نواس ص ٨٤ ط. الغزالي.

أو كما يقول «الراغب الأصبهاني»^(١) طيب المدام بطيب الندام ويكاد أبو نواس يشرح هذه المقولة بقوله:

فأراح طيبة وليس تمامها
وكتوله في مقطوعة أخرى مكرراً نفس المعاني:
نفس المدامة أطيّب الأنفاسِ
فإذا خلوت بشرّها في مجلسِ
أهلاً بمنّ يحميه عن أنجاسِ^(٢)
فأكفّف لسانك عن عيوب الناسِ
فاجعل حديثك كلّهُ في الكأسِ
وصفو التعاشر في مُجانبة الأذى
وعلى اللبيب تخيير الجلّاسِ^(٣)

يريد أبو نواس إذا ما انعقد مجلس الخمر أن لا يخوض الندمان في غير حديث الكأس لأن ذلك أجمع للذات وأبعد من المؤذيات، وإذن فعلى العاقل أن يحسن اختيار ندمائه ممن «يستر العيب ويحفظ الغيب».

هذا، وقد استطعنا من خلال استقراءنا لخمريات أبي نواس أن نقف على شروطه في مجلس ندامه وفي ندمائه، وجلهم من نظرائه، ولحرصه على التآلف والاستكثار من اللذات كما يقول «النواجي» مع ندمائه رأيناه يولي عدد الندمان في المجلس عناية خاصة يتفق إلى حد كبير مع ما نصت عليه كتب الأدب والحضارة في هذا الخصوص فقد كانوا يتحاشون الكثرة في عدد الندماء ولهم في هذا أقوال طريفة من ذلك سميتهم الاثنين منشاراً فإن تربص أحدهما لبعض شأنه بقي الآخر واجماً منفرداً فتعرض له الفكر وليس كذلك أمر الثلاثة^(٤) وعن إسحق الموصلي: (الواحد غم والاثنان هم وثلاثة قوام وأربعة تمام وخمسة زحام وسبعة جيش لهام)^(٥). على أن «النواجي» يعتبر (أن هذه الأمور نسبية وخيالات وهمية فقد يوجد صفاء العيش مع الكثير ويفقد مع اليسير...)^(٦).

أما أبو نواس فقد كان ميّالاً إلى العدد القليل ولكن بشروط يشترطها فهو يرى أن ثلاثة ندمان بالإضافة إلى صاحب الدعوة والمغني أو ضارب العود والمجموع خمسة أدعى إلى الصفاء:

(١) محاضرات الأدباء ٦٩٣/٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٠٥ ط. الغزالي، و ٢٩٥ ط. آصاف.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٢١.

(٤) قطب السرور ص ٣٠٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣١١.

(٦) حلبة الكميت ص ٣٢.

ثلاثة في مجلسٍ طيب
فإن تجاوزتَ إلى سادسٍ
وصاحبُ الدَعوة والضاربُ
أتاكُ منهم شغبٌ شاغبٌ

وفي نص آخر يصرِّح بأن خير الندامي إذا كانوا ستة أنفار خمسة إخوان وسادس يحسن الإنشاد مع شرط العقل والتألف وأن لا يكون بينهم عربيد أو غير حافظ للغيب ولا كاتم للسر.

وخيرُ الندامي ستةٌ من ذوي الحجى
ويُحمد في الإخوانِ مَنْ كان مُنشدًا
ولا يشهدنَّ الشربَ إلا عصابةً
إذا افترقوا دأموا علي العهدِ بينهم
وئنفسى لديهم سقلةٌ ومعربيدٌ
فخمسةٌ إخوانٍ وآخرُ مسمِعُ
بصوتٍ يُغنيهِ ولا يتمنِّعُ
نفوسُهُم نفسُ دنوا أو تشيعوا
ويُحمدُ منهم برهم أن تجمَّعوا
ومُعَد لأسرارِ الندامي مُضيعُ

فإذا لم يجد النديم المناسب جلس وحده إلى خمره يتناجيان، فهو الساقى وهو الحاسي لتكون أحسن سلوى له وليس هناك ما يحاكيها حسناً ولا ظرفاً:

خلوت بالراح أناجيها
نادمتها إذ لم أجد مُسعِداً
شربتها صرفاً على وجهها
لم تنظر العينُ إلى منظرٍ
ما زلتُ خوفَ العينِ لَمَا بدتُ
أخُذُ منها وأعاطيها^(١)
أرضاه أن يشركني فيها
فكنتُ ساقِيها وحاسِيها
في الحُسنِ والظُرفِ يدانيها
أنفُتُ في كأسِي وأزقيها

حقوق المتنادمة:

حاول أبو نواس أن يضع قانوناً للمتنادمة والمتنادمين في صورة تشريعية أدبية سمي لها خمسة حقوق هي «حقوق الكأس والندمان»:

حقوق الكأس والندمان خمسُ
وثانيها مُسامحةُ الندامي
وثالثها وإن كنتَ ابنَ خيرِ البريةِ
فأولها التزيُّنُ بالوقارِ^(٢)
وكم حمتِ السماحةُ من ذمارِ
محتدأً تركُ الفخارِ

(١) ديوان أبي نواس ص ١١٤ ط. الغزالي .

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢٠٩/١ .

ورابعها فللندمان حَقٌّ سوى حَقِّ القِرَابَةِ والجوارِ
 إذا حَدَّثْتَهُ فَأَكْسُ الحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثْتَهُ ثَوْبَ اِخْتِصَارِ
 وخامسها يُدَلِّ بِه أَخُوهُ عَلَى كَرَمِ الطَّبِيعَةِ والنُّجَارِ
 كَلَامُ اللَّيْلِ يَنْسَاهُ نَهَاراً فَإِنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْعُقَارِ
 فَإِنَّ حَكَمَتَ كَأْسِكَ فِيهِ فَاحْكُمْ لَهُ بِإِقَالَةٍ عِنْدَ الْعِثَارِ

يجل أبو نواس مجلس الندام عن التبذل والإسفاف فلا يليق به إلا كل من تحلى بالوقار وكل
 سمح لا يفخر على إخوانه من الندماء حتى لو كان ابن خير الناس جميعاً لأن الندام قربي وجوار فلا
 يجوز لأحد من المتنادمين التطاول والإطالة في الحديث بل يقتصر على النافع المفيد وأما خامس
 هذه المشروعة من حقوق الندام فستر العيب وحفظ الغيب لأن (مجلس المدام مجلس
 حرمة . . .) (١) وفي ذلك يقول أبو نواس متحرزاً من الإفشاء:

ولما شَرَبْنَاها وَدَبُّ دَبِيبُهَا إِلَى مَوْضِعِ الْأَسْرَارِ قَلْتُ لَهَا قِيفِي
 مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شِعَاعُهَا وَتُظْهِرَ نُدْمَائِي عَلَى سِرِّي الْخَفِيِّ
 وكانوا يوصون بالإيجاز والاختصار في الأحاديث أثناء المنادمة مع المذاكرة في الآداب (٢) وفي
 هذا يقول أبو نواس:

لا يَطِيبُ الشَّرَابُ إِلَّا لِقَوْمٍ جَعَلُوا نُقْلَهُمْ عَلَيْهِ الْوَقَارَ
 فَهَمْ يُسْمَعُونَ صَوْتاً إِذَا مَرَّ وَانْتَشَدُوا الْأَشْعَارَ
 لا كَقَوْمٍ فِي ضَجَّةٍ وَصِيَّاحٍ كَنَهَيْقِ الْحُمَارِ لَأَقَى الْحَمَارَ

وكذلك كان يزري بالخروج على آداب المنادمة، فقد كانت لذته أن يشرب مع نفر من الناس
 يكونون جمالاً في عينيه وغناء في أذنيه (٣)، وهكذا ندد بجعفر بن يحيى البرمكي لأنه كان يعربد
 على ندمائه:

ما فِي النَّبِيدِ مَعَ الْمُعْرَبِدِ لَذَّةٌ وَابْنُ لِيْحِي لا طَمَّ بِيَدَيْنِ
 رِيحَانُهُ بَدَمِ الشَّجَاعِ مَلْطَخٌ وَتَحِيَّةُ النَّدْمَانِ قَلْعُ الْعَيْنِ
 لا تَشْرَبَنَّ وَجَعْفَرًا فِي مَجْلَسِ أِبْدَأُ وَلا تَحْمِلْ دَمَ الْأَخْوِينِ

(١) زهر الآداب ٤٤٩/١.

(٢) حلبة الكميت ص ٣٠.

(٣) أبو نواس لعمر فروخ ص ١٢١.

وقد وصف الأصمعي العريضة فقال: (العريضة حية تنفخ ولا تؤذي)^(١) وفي علاج العريضة يوصي أبو نواس بتكرار الشرب على المعربد صرفاً غير ممزوجة حتى تقوم الخمر ما اعوج من سلوكه لأنها الداء والدواء فإذا غلبته سورتها وسده عضده فينام:

وإذا رام نديم عريضة فاقرعن بالصرف منه كبدته^(٢)
 كرر الخمر عليه بحتة كي تقيم الخمر منه أودة
 ثم وسده إذا ما غلبت سورة الراح عليه عضده

ولذلك فهو يوصي صاحبه أن لا ينادم السيء الخلق القليل العقل وإنما السيد من الرجال فإن المرء يعرف بقرينه، كما يعرف نديم المدام بنديمه:

ولا تجعل نديمك في شراب سخيّف العقل أو دنس الأديم^(٣)
 ونادم إن شربت أخا معال فإن الشرب يجمّل بالقروم
 وإن المرء يصحب كل جيل وينسب في المدام إلى النديم

ولتشدده في اختيار ندمائه شاعت في خمرياته عبارات التمدح بل التبجح بهؤلاء الندمان فهم السادة الغر الميامين الذين لا تبطّهم النعمة ولا يقصرون عن كرم حتى كانوا زينة المجالس:

نازعتها فتية غرا غطارفة ليسوا إذا امتحنوا يوماً بأنكاس^(٤)
 لا يبطرون ولا يخزون ناديمهم كأنهم جثث من غير أنفاس

أو هم من السادة ذوي البهاء والجمال كأنما قدت وجوههم من زهر أحمر:

نازعاها سادة غطارفة كأنهم من شقيقة شقيقوا^(٥)

أو ممن لا يسمع في مجلسهم فاحش القول وإنما الحديث المختار والمنطق الرائق:

في مجلس ليس فيه فاحشة إلا حديث ومنطق أنق^(٦)

أو من المنزهين عن الفاحشة الذين لا يعرفون العائبة ولا يتجرون:

(١) محاضرات الأدباء ٦٩٨/٢ .
 (٢) ديوان أبي نواس ص ٩٦ ط . الغزالي .
 (٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٠ ط . آصاف .
 (٤) المصدر السابق نفسه ص ٢٩٧ .
 (٥) ديوان أبي نواس ص ٥٣ ط . الغزالي .
 (٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٠٧ ط . آصاف .

نداماي طول الدهر خرس عن الخنا وعمي عن العوراء نزه عن الكبر^(١)
وقد بلغ تمدحه بندمائه إلى درجة المداخلة ما بين شروطه في المنادمة وبين عصبته القبلية كقوله:

وصاحب زان كل مضطحِب
أروعُ محمودةً خلانقهُ
بدرُ ظلامٍ غياثُ مجدبةِ
مهدَّبُ ماجدُ أخو كرمِ
دوماً تراه قتيلٌ غانيةِ
يُنمى إذا ما انتمى إلى اليمَن^(٢)
يبدُلُ في الخمرِ أفضلَ الثمنِ
معدنٌ بذلٍ يهتزُّ للمننِ
قرمٌ يرجى لحادثِ الزمنِ
مُعْمَلُ كأسٍ بالخَلعِ للرَّسنِ

وهذا نديم آخر يثني عليه بعصبته فهو ينمي إلى سادات خزاعة فهو نديم صادق المودة جميل السجايا والشمائل جواد يبذل المال في سبيل لذاته أريحي لا يتوانى عن العطاء ولا يصغي للعوائل:

وندمان صدقٍ من خزاعة في الذرا
يُهين رقابَ المال في كل لذة
كريمٍ مطير الكف يهتزُّ للندي
وتوقيراً للخمر وإكباراً لها يحرم معاقرتها على السفيه:
أغرُ كضوء الصبح حلو الشمائل^(٣)
وليس بسماعٍ لقولِ العوائلِ
كما اهتز سيفٌ في أكفِ الصياقلِ

ووقر الكأس عن سفيهٍ فإن حقاً لها الوقارُ

كما يحظرها على العرييد الذي لا يعرف حقها واللثيم الذي لا يحسن أدب معاقرتها:

لا تمكنني من العرييد يثربني ولا اللثيم الذي إن شمني قطباً^(٤)
وأيضاً على الذي ينفر منها ويلوم فيها مفضلاً عليها الماء مهانة وصغاراً:

واتركن من لأمٍ فيها وأبى إلا نفاراً^(٥)
يشربُ الماءَ مكانَ الراحِ رغماً وصغاراً

(١) ديوان أبي نواس ص ١٢٣ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٧ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٨٥ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢٢.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٩٢ ط. الغزالي.

وهكذا حرمها على مَنْ يدعي «أبا أيوب» لأنه ابتاع بالخمير نبيذاً فكان هو الخاسر خسارة من باع
فرساً أصيلاً بحمار:

واصرفنها عن أبي أيوب إذ تاه فخاراً
باع راحاً بنبيذ هكذا يبعاً خساراً
مثل مبتاعٍ بطرفٍ سبق الخيل حماراً

والمحصلة الأخيرة أن ندمان أبي نواس من خير العباد، ومن الأشراف أبناء الأشراف، والأجواد
أبناء الأجواد:

واخترت أخوة صدقٍ من خير هذي العباد^(١)
شريفٌ ابنٌ شريفٍ جوادٌ ابنٌ جوادٍ

العلاقة بين المتنادمين:

حاول أبو نواس من خلال خمرياته أن يكشف لنا ما كان يربط بين المتنادمين من علاقة حميمة
تجاوز بها الحدود الشكلية والرواسم والتقاليد إلى سبر الأغوار والتعمق في قرارة النفس البشرية.
وأول شيء أن أبا نواس جعل المنادمة تعادل النسب أو القرابة في ربط عرى المودة والألفة بين
المتنادمين، فعلى أبناء الصهباء الذين رضعوا من درتها من الحقوق ما على أبناء الأم الواحدة من
ستر العيب وحفظ الغيب والصدق في المعاملة:

والقومُ اخوانٌ صدق بينهم نسبٌ من المودة ما يرقى له نسبٌ^(٢)
تراضعوا درةً الصهباء بينهم وأوجبوا لنديم الكأس ما يجبُ
لا يحفظون على السكران زلتته ولا يرئيك من أخلاقهم ربُّ
وهكذا كانت المدام نسباً:

وأن المرء يصحب كل جيل وينسب في المدام إلى النديم^(٣)
ولهذا كان النديم رؤوفاً بنديمه، وينبغي للنديم كما يقول «النواجي» (أن يكون أطوع للجماعة من
فعلهم وأتبع لهم من ظلمهم)^(٤). وكذلك كانت استجابة أبي نواس لندمائه فإذا أرادوه على السكر

(١) ديوان أبي نواس ص ١٥٤ ط. الغزالي.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٩٢ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٤٤.

(٤) حلبة الكميت ص ٣٩.

سعى إليهم دون تردد ودون أن تلحقه ملامة .

ولستُ بمستعفٍ من السكرِ صاحباً
ولكنني أسعى إلى السكرِ واثقاً
إذا كان يَهوى أن أصيرَ إلى السكرِ
بما فيه إن أخطأتُ من سعةِ الصدرِ

وأبو نواس دائم البر بندمانه حريص على راحتهم أثناء الشراب فيما يعود عليهم بالاستكثار من اللذات فإذا بلغ السكر بأحد الندمان مبلغاً عظيماً وأثقل النعاس جفونه فإنه لا يثقل عليه بالشراب ولكنه يصرف الكأس عنه بإشارة من حاجبيه حتى إذا عاودته الرغبة فيها ناوله إياها:

ولستُ بقائلٍ لنديمِ صدق
تناولها والا لم أذُقها
ولكنني أديرُ الكأسَ عنه
وأحبسها إلى أن يشتهيها
فهذا ما حيثُ له وإنِّي
وقد أخذ النعاس بمقلتيه^(١)
فأخذها وقد ثقلتُ عليه
وأصرفها بغمزةِ حاجبيه
وأخذها برفقٍ من يديه
أبرُ لمثله من والديه

فإذا لحق بأحد أصحابه داء الخمار أسعفه بالأساليب الخمرية المعهودة، وهي أن الخمر داء للخمار، وهذا من الخدع التي اختدع بها أكثر الناس^(٢) لأن الخمار أشد من السكر^(٣) وكذلك كان دأبه ودأب نديمه طيلة الليل، كلما زاده أبو نواس كأساً طلب النديم أخرى حتى خرّ صريعاً ولا علم له إن كان على أرض أم كان على وساد:

وندمان ترادفُهُ خمارٌ
فليس بمستقلِّ الكأس ما لم
رفعت له يدي وهنأ بكأسٍ
وقال ألسنتَ متبعها بأخرى
فقلت بلى وبأخرياتٍ
فذلك دأبه ليلى ودأبي
إلى أن خرَّ ما يدري أرضاً

فأورث في أنامله ارتعاداً^(٤)
تكن يُسراه لليمنى عماداً
بها منها تزيد فاستعاداً
توقرني فإن بيّ ازدياداً
على أنني سأجعلها جواداً
إذا ما زدته منها استزاداً
توسد عند ذلك أم وساداً

(١) ديوان أبي نواس ص ١٢٠ ط . الغزالي .

(٢) قطب السرور ص ٤٢٦ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٨١ ط . الغزالي .

(٣) فصول التماثيل ص ١٠٥ .

وتتكرر المواقف الخمرية ما بين أبي نواس وندمائه ليكشف كل موقف منها عن علاقة جديدة حميمة تربطه بندمائه فهذا نديم يصفه بأنه من علية القوم دعاه أبو نواس إلى تناول كأسه ليبتها كالأخوين وقد هاجهما الطرب، أبو نواس يجرزقاً والنديم يجزر رجلاً خذلها السُّكَّر فمرة تستقيم ومرة تحيد عن القصد:

ومتصل بأسباب المعالي	له في كل مكرمة قديم ^(١)
رفعت له النداء بقم فخذها	وقد أخذت مطالعها النجوم
بتفدية تذال النفس فيها	وتمتهن الخؤولة والعموم
فقام وقمت من أخوين هاجا	علي طرب وليلهما بهيم
أجرُّ الزق وهو يجرُّ رجلاً	يجور بها النعاس ويستقيم

ومن مظاهر المشاركة الوجدانية الحميمة بين أبي نواس وندمائه حال النديم الذي يصفه بـ «الموفي بذمته» الذي يطلب إلى أبي نواس أن يسقيه ويشرب معه ثم يغني . . . وهي مراحل ثلاث أولها طلب حاجة وثانيها مشاركة، وثالثها موساة: حتى إذا ثنى ثم ثلث عاد ورد براحة يده الراح . . !

نَبَّهْتُ نَدْمَانِي المَوْفَى بِذِمَّتِهِ	من بعد إتعابِ كاساتِ وأقداحِ ^(٢)
فقال: هاتِ اسقني واشربْ وغنِّ لنا	«يا دار شعشاء بالقاعين فالسَّاحِ»
فما حساً ثانياً أو بعض ثالثية	حتى استدار ورد الرَّاحِ بالرَّاحِ

فأبو نواس مع نديمه دائماً، سواء في سرائه أم في ضرائه، في سُكْره أم في صحوه، قادراً وعاجزاً. وهذا نديم منعم حيي حتى أن كلامه بالرمز والإشارة يتقدم منه أبو نواس وقد أثقل النعاس جفونه فيحركه في رافة وتدليل ناعماً إياه بسيد الأصدقاء الندمان، عارضاً عليه شربة من خمر تزيح الهم عن صدره وتسمو به إلى العلياء فأجابه بصوت خفيض وقد أخذت تباشير الصباح تلوح في الأفق، إني أعرف قصدك ولكن سطوة الصهباء أعجزتني عن استعفائك من الشراب:

وَمُتَرَفَ عَقْلَ الحَيَاءِ لِسَانَهُ	فكلامه بالوحي والإيماء ^(٣)
لما نظرتُ إلى الكرى في عينه	قد عقد الجفنين بالإغفاء

(١) ديوان أبي نواس ص ٥٥ .

(٢) نفسه ص ١٠٩ ط . الغزالي .

(٣) نفسه ص ٢٢٣ .

حَرَكَتُهُ بِيَدِي وَقَلْتُ لَهُ انْتَبِهْ
 حَتَّى أَزِيحَ السُّهُمَ عَنْكَ بِشَرِيَّةٍ
 فَأَجَابَنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ
 إِنِّي لِأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا
 يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ وَالنُّدْمَاءِ
 تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلْيَاءِ
 وَالصَّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظُّلْمَاءِ
 رَدَّ التَّعَافِي سَوْرَةَ الصُّهْبَاءِ

على أن ذلك لا يعني أن جميع المتنادمين سواء مع الخمر وإن كان ينتظمهم مجلس خمري واحد ومشاركة مادية في المباني، ووجدانية في المشاعر لكن يبقى لكل نديم خصوصية، ففي الواقعة الخمرية يكون منهم السعيد لأن الخمر أزالته عنه همومه الثقيلة والبعض الآخر أصبح أسيراً للخمر، وغيره عاودته ذكرياته الحزينة ففاضت دموعه قطرات كحبات المرجان تنحدر على الصدر. هنا يبدو أبو نواس وكأنه الموكل بشؤون المتنادمين فيمد لهم يد العون والمساعدة لمواجهة ما هم فيه من سورة الحب وجنونه لأن الحب لا يولع إلا بالأحرار من الرجال . . . وكذلك كانت تلك الأيام لأبي نواس بين ندمانه أيام غضارة ونعيم عيش فإيا ليت أنها تعود وتبقى إلى يوم الحشر:

فبَعْضُ النُّدَامَى فِي سُورٍ وَغِبْطَةٍ
 وَبَعْضُ بَكِي بَعْضاً ففَاضَتْ دَموعُهُ
 فسَاعَدْتُهُمْ عِلْماً بما يُورِثُ الهَوَى
 فسَقِيّاً لِأَيامٍ مَضَتْ وَهِيَ غَضَّةٌ
 وَبَعْضُ النُّدَامَى لِلْمُدَامَةِ فِي أُسْرٍ^(١)
 عَلَى الخِدِّ كَالْمَرْجَانِ سَالٍ إِلَى النُّحْرِ
 وَأَنْ جَنُونََ الحَبِّ يَوْلَعُ بِالْحُرِّ
 أَلَا لِيَتَّهَا عَادَتْ وَدَامَتْ إِلَى الحَشْرِ
 - أوعية الخمر وأوانيتها:

حفلت خمريات أبي نواس بأسماء الكثير من أدوات الخمر وأوعيتها وأوانيتها من مختلف الأشكال والأحجام والأنواع مع اختلاف أوجه الاستعمال أيضاً. هذا، وبعد استقصاء أحسبه شاملاً لمعظم إن لم يكن لجميع ما ورد في خمريات شاعرنا من أسماء هذه الأدوات أمكنتني قسمتها إلى ثلاثة أنواع متميزة أولها نوع كانت تختزن فيه الخمر وتحفظ للاختمار مدداً متفاوتة حتى أن الخمر سميت خمراً لأنها خمدت في أنائها، وعقاراً لأنها عاقرت الدن^(٢) ونوع آخر كانت الخمر تسكب فيه لتصفو ويرسب كدها قبل شربها^(٣) والنوع الثالث هو الذي كانت تسكب أو تصب فيه الخمر ومنه كان الندمان يحتسون الخمر ويشربونها مباشرة.

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٢٣ ط. الغزالي .

(٢) فصول التماثيل لابن المعتز ص ٤٨ .

(٣) ألحان الحان لعبد الرحمن صدقي ص ٢٤٦ .

أما النوع الأول من هذه الأدوات فمن أشهر ما جاء منها في شعر أبي نواس الدنان والزقاق. والدن نوع من الجرار الفخارية ورد منها في خمريات أبي نواس أسماء الدنان والحباب والخوابي والرواقد. ففي صيغة المفرد للدنان يقول الشاعر:

أقامت حقبَةً في قَعْرِ دَنْ تَفُور وما يُحَسُّ لها لهيبٌ^(١)
وبصيغة الجمع يقول:

وتناساها الجديدانِ حَتَّى هي أنصافُ شطُورِ الدَّنَانِ^(٢)

وربما شبهها وقد وضعت في صفوف بأشياخ معمة:

أقامت في الدنان ولم تَضِرْهَا ولكن زانها طولُ المُقَامِ^(٣)
أشَبَّهَهَا وقد صُفِّتْ صفوفاً بأشياخٍ مُعَمِّمَةٍ قِيَامِ

وقد يكتفي بالصفة من دون الموصوف فالدن هو المسند لأنه بغير قوائم:

فَشَكَّ بأشفاءٍ له بَطْنٌ مُسْنَدٌ فسالت تحاكي في تلالؤها البَدْرَا^(٤)

وهو المدمج والمختوم أي المحاط بالليف والقار، والمقل فوه بالطين وغيره:

عَتَّقَتْهَا الأنباطُ عشراً فعشراً ثم عشراً في مُدْمَجٍ مُخْتَمِمْ^(٥)
وهو الأجوف المقير باطنه بالزفت:

من قعر أجوف ذي ساقٍ بلا قَدَمٍ نَيْطَتْ بَدَنٍ عَظِيمِ البُطْنِ هَدَارِ^(٦)
ممازجُ الخَلْقِ من زِفْتِ بَطَانَتُهُ والظَهْرُ من فوقه بنيانُ فَخَّارِ

أما الحباب، ومفردها حب فهي أكبر من الدنان في الحجم ولم يرد منها مفرد في خمريات أبي نواس:

أَتُوا بها في الحِبابِ يخفِرها مَشْيُ هُوَيْني ما إنَّ به نَزَقُ^(٧)

(١) ديوان أبي نواس ص ١١ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٩٣.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٧٥.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٥٣.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٤٩.

أما الروايد جمع راقود فهي أصغر من الدنان^(١) وقيل أكبر^(٢) وفيها يقول أبو نواس واصفاً إياها بلفظ مزفة:

استودعوها رواقيداً مزفتةً من أغبرِ قاتمٍ منها وغبراء^(٣)

وكذلك الخوابي نوع عظيم من الدنان وقد وردت بصيغة المفرد والجمع موصوفة وغير موصوفة:

لا يطرقُ الأسماعَ في أرجائه إلا ترنمُ السُنِّ العِيدانِ^(٤)
أو صوتُ تصفيقِ الجليسِ تطرباً وبكاءٍ خابيةٍ وضحكٍ قناني
و: فضمنَ صفوً ما يجنونَ منها خوابي كالرجالِ مقيرات^(٥)

أما الزقاق ومفردها زق وتصنع من جلود الغنم فقد كثر وصفها بالشاقيات أي الشائلات أو المرتفعات وقد جاء اللفظ مفرداً وجمعاً موصوفاً أو غير موصوف كقوله:

- وجرُّ زقاً كأنه رجلٌ مفصلُ الساعدين من حام^(٦)
- مساحبٌ من جرِّ الزقاق على الثرى وأضغاثُ ريحانِ جنِّي وبابس^(٧)
- إذا نزفوا زقاً أقمتُ مكانه من الشاقياتِ السودِ محزوزةَ الظهر^(٨)

ومن الصفات التي أطلقها أبو نواس على الزقاق أيضاً صفة «اسحم مسود» و«حبشان» ليدل على شدة سوادها في قوله:

وبنتِ كرمٍ سفكناها بدرهمنا من بطنِ أسحمٍ مُسودٍ وما سُفكا^(٩)
كأنَّ أكرعه أيدي مقلعةٌ لا يرتجي قوداً منها ولا دركا

ومن الزقاق الأداوى ومفردها أداة وهي زقاق صغيرة كانت تتخذ من الجلد أيضاً وفيها يقول أبو

نواس بصيغة الجمع:

(١) ألحان الحان لعبد الرحمن صدقي ص ٢١٤ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٥ «الهامش» ط . الغزالي .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢١٠ .

(٦) ديوان أبي نواس ص ٣٧ ط . الغزالي .

(٧) ديوان أبي نواس ص ٢٤ ط . الغزالي .

(٨) المصدر السابق نفسه ص ٨٩ .

(٩) المصدر السابق نفسه ص ١٢٣ .

فَقَالَتْ مِنَ الطَّرَاقِ قَلْنَا عَصَابَةً خَفَافُ الْأَدَاوَى يُبْتَغَى لَهُمْ خَمْرٌ^(١)
أما النوع الثاني من أدوات الخمر وهي التي كانت تسكب فيها الخمر لتصفو ويرسب كدرها
قبل شربها فقد سُمِّيَ لنا أبو نواس جملةً سالحةً منها مثل:

الدوارق، والناجود، والبواطي، والقارورة، والقناني، والأباريق.

وربما كانت الأباريق ومفردتها إبريق أكثرها دوراناً في شعره كقوله:

قَامَتْ بِإِبْرِيقِهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهِهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ^(٢)
وَمَا هُوَ يَصِفُ الْإِبْرِيقَ مَرَّةً بِأَنَّهُ مُنْتَصِبٌ كَالْوَاقِفِ عَلَى قَدَمَيْهِ وَأُخْرَى جَائِئاً بَارِكاً:

إِبْرِيقُنَا مُنْتَصِبٌ تَارَةً وَتَارَةً مُبْتَرِكٌ جَائِئٌ^(٣)

كذلك يمثله عند انصباب الخمر منه بشيخ يززم في صلاته وقد شرق بصوته إما لعله الكبير أو
لخلافه:

كَأَنَّ إِبْرِيقَنَا إِذَا صُفِّقَتْ فِي الْكَاسِ شَيْخٌ مَزْمَزٌ شَرِقٌ^(٤)
كما شبه نفس الصوت بالفأفة وهي من عيوب النطق بتريديد حرف الفاء:

كَأَنَّ قَرَقِرَةَ الْإِبْرِيقِ بَيْنَهُمْ رَجْعُ الْمَزَامِيرِ أَوْ تَرْجِيعُ فَأَفَاءِ^(٥)
على أن أجمل ما صور به الإبريق وهو جاثم أمامه بالظبي المستشرف من فوق مرتفع وهو
مدعور خوفاً من صائد يترصده فمد عنقه:

كَأَنَّ أَبْرِيقَنَا ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ قَدَّمْ مِنْهُ لَخُوفِ الْقَانَصِ الْعُنْقَا^(٦)

و: كَأَنَّ أَبْرِيقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمٌ مِنْ شَبَا الْكُتَانِ مَكْمُومٌ^(٧)

هذا، ولا ينسى أبو نواس أن ينص على نوع المادة المصنوعة منها تلك الأباريق مع التنويه

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦ .

(٣) نفسه ص ٢٥ ط . الغزالي .

(٤) نفسه ص ٥٤ .

(٥) نفسه ص ٢٣٦ ط . آصاف .

(٦) فصول التماثيل ص ٤٩ .

(٧) نفسه ص ٩٠ .

بجمالها فالبعض منها أباريق فضية حسان تشبه ظباء القفار أو طيور الكراكي عند فزعها من الصقور:
في أباريقٍ من لُجَيْنِ حسانٍ كظباء سَكَنَ عَرْضَ القِفَارِ^(١)
أو كراكٍ ذُعْرَنَ من صوتِ صَقْرٍ مُفْرَعَاتِ شواخصِ الأَبْصارِ
ومن الأباريق ما هو مصنوع من الزجاج:

نحلبُ الرِّاحِ صُراحاً في أباريقِ الزجاجِ^(٢)

على أن شكل الإبريق ظل هو المستحوذ على خياله من ذلك تصويره للأباريق وهي تفرغ ما
في أجوافها من خمر مائلة وكأنها ساجدة بطائر بنات ألماء وهي مقعية في فزع وذعر حذار أن ينقض
عليها الصقر:

في أباريقٍ سُجِدِ كبناتِ الماءِ اقعينَ من حِذارِ الصقورِ^(٣)
أو كقوله:

ثم صارتُ إلى أَعْنُ كطيرِ المِساءِ إبريقِ فضةٍ مَفْدُومِ^(٤)
أغن صفة لمحدوف تقديره ظبي يصف به الإبريق. ومفدوم أي قد وضع عليه الفدام أي
المصفاة.

أما بقية الأدوات من دولرق وقوارير وقناني ونواجيد وبواط فقليلة الدوران نسبياً في شعر أبي
نواس إذا ما قيست بكثرة دوران الأباريق.

وفي الدواريق مجردة من أية إضافة يقول أبو نواس:

فقلت لها كَيْلاً حساباً مَقَوماً دواريقَ خمرٍ ما نقصنَ وما زدنا^(٥)
وكقوله أيضاً بلفظ دوارق:

فلما جرتُ فيه تَغْنَى وقال لي بِسُكْرِ الأَهاتِ اسقينا بالدُّوارقِ^(٦)

(١) ديوان أبي نواس ص ١٨٣ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٨.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٩١ ط. آصاف.

(٤) ديوان أبي نواس ص ١٧٦ ط. الغزالي.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٩.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٧١.

وفي الناجود، بالمفرد، يقول:

أخذتُ من كُلِّ شيءٍ لونها فهي في ناجودها قوسٌ قزحٌ^(١)
والوصف هنا «قوس قزح» منصرف إلى الخمر لا إلى الأنية.

ومثل ذلك ما قاله في القارورة:

وَمَزْنِرٍ قَدْ صَبَّ فِي قَارُورَةٍ رِيْقِ السَّحَابِ عَلَى النَّجِيعِ الْقَانِيِ^(٢)
• فريق السحاب هو الماء، والنجيع القاني هو الخمر وفي القناني نراه يتوسع في معانيه وخياله
عن طريق المزوجة بين الخابية والقناني:

لا يطرُقُ الأسماعَ في أرجائه إلا ترنمُ السنِّ العيدانِ^(٣)
أو صوتُ تصفيقِ الجليسِ تطرباً وكأءِ خابيةٍ وضحكُ قناني
وفي نص آخر يصف القناني بالتلألؤ وقد لفت على أفواهاها القلاد وهو خيط من النحاس
الأصفر:

فَسَلَّ مِنْهَا بَرَّالاً فَسَالُ مِثْلُ الْفِصَادِ^(٤)
إلى قنَانٍ تَلَّالاً مُدْمَلَجَاتِ الْقِلَادِ

وهذه القناني فرعونية الصنع، يقول في حوار طويل مع الخمر:

قالت «فبيتي فما استحسَنُ الخشبا»^(٥)

قلت القناني والأقداح ولدها فرعونٌ قالت لقد هيَّجَت لي طرباً
أما البواطي فالغالب مجيئها مجردة من أية إضافة مفردة ومجموعة كقوله:

حتى إذا سُلِسِلَتْ في قعر باطيةٍ
وفي بيته زقٌ ودنٌ ودورقٌ
أغناك لألأؤها عن ضوءِ مصباحِ^(٦)
وباطية تُروي الفتى وتُنيمُ^(٧)

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥.

(٣) نفسه ونفس الصفحة.

(٤) نفسه ص ١٥٤.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٩١.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٠٨.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٣١.

من كُمَيْتِ كَسْنَى البرقِ أضواءُ في البواطِي^(١)
أما النوع الثالث والأخير من أواني الخمر وأدواتها من كؤوس وطاسات وزجاجات فقد كان لها
الحظوة الكبرى من اهتمام الشاعر وعنايته ويقف الكأس أو القدح^(٢) أو الجام على رأسها فمن
(شرب فيه فكانما شرب في إناء وماء وهواء وضياء)^(٣).

وقد تجاوزت المرات التي جاء فيها ذكر الكأس في خمريات أبي نواس المئة وعشراً كان فيها
الكأس مركز الإثارة في مجالس أبي نواس الخمرية وعينه ترقب الساقى في غدوه ورواحه وعلى
راحته كأس الخمر بما يزدان به من صور ورسوم لتنتطب في ذهن أبي نواس مستثيرة صوراً ورسوماً
أخرى فإذا كانت الخمر ياقوتة فالكأس لؤلؤة والساقية فاتنة تخلب الألباب:

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كفَّ جارية ممشوقة القَدَّ^(٤)
وقد تصبغ الكأس ياقوتة بدلاً من الخمر:

فالخمرُ فينا كالبيجادي حُمرةً والكأس من ياقوتة بيضاء^(٥)
والحق أن الكؤوس كانت في خمريات أبي نواس مسرحاً لعمليات خمرية نادرة. ومع التدقيق
في ما كان يحدث في مجلس الخمر خيل لأبي نواس أن الكؤوس أجرام سماوية تجري في فلكها،
وأيدي الندمان هي البروج التي تنتقل فيها الكؤوس «الأجرام السماوية» من يد إلى يد أو من برج إلى
برج.

في كؤوسٍ كأنهنَّ نجومٌ جارياتٌ بروجها أيدينا^(٦)
بل إن هذه الكؤوس ترسم في دورانها على الشرب من الندمان فلماً شبيهاً بالفلك الذي تدور
فيه النجوم مسرعة أو بطيئة، فإذا أجرى الساقى «القطب» طاساته «نجومه» أشرقت علينا وضياء باعثة
فيها الحياة، وإذا أمسكها عن الجريان غارت وغابت فحل بنا الموت:

(١) ديوان أبي نواس ص ١٨١.

(٢) الفرق بين الكأس والقدح إنه إذا كان ملأً سُمي كأساً وإذا كان فارغاً سُمي قدحاً.

(٣) حلبة الكميت ص ١٦٧.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٧ ط. الغزالي.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٧٠٤.

(٦) نفسه ص ٣٠ ط. الغزالي.

إذا الطاسات كَرَّتْهَا عَلَيْنَا تَكُونُ بَيْنَنَا فَلْكَ يَدُورُ^(١)
 تَسِيرُ نَجْوَمُهُ عَجَلًا وَرِيثًا مُشْرِقَةٌ وَتَارَاتٍ تَغُورُ
 إِذَا لَمْ يَجْرَهَنَّ الْقَطْبُ مِتْنَا وَفِي دَوْرَاتِهِنَّ لَنَا نُشُورُ

وعن الخمر بعد مغادرتها لونها المقيير وهي في يد الساقى يدور بها على الندمان يجعل أبو نواس الكأس إزاراً لها تأتزر به فما أن مزجت بالماء حتى تكونت على السطح حلقات متتالية من الحباب حلقة تلو حلقة كأنها حبات من الدر الكبير والصغير فأنى نظرت إليها العين بدت كأحرف الواو الصغيرة حتى إذا احتسأها الندمان أجدتهم حمرة في العيون :

لَمْ تَزَلْ فِي قَعْرَدَيْنِ مُشَعِرٍ زِفْتًا وَقَارًا^(٢)
 ثُمَّ شُجَّتْ فَأَدَارَتْ فَوْقَهَا طَوْقًا فَذَارًا
 كاقتران الدر بالدر صِغَارًا وَكِبَارًا
 فَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْهُ الْعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارًا
 خَلَّتْهُ فِي جَنَابِ الْكَاسِ وَأَوَاتٍ صِغَارًا
 مِنْ يَدَيِ سَاقٍ ظَرِيفٍ كُوسِي الْحُسْنِ شِعَارًا
 يَقْتَرِي الْقَوْمَ بِكَاسٍ تَلْبَسُ الْخَمْرَ إِزَارًا
 فَإِذَا مَا سَلَسَلُوهَا أَحَدَتِ الْعَيْنَ أَحْمِرَارًا

إن مسرح العمليات يبقى متصل التوليد للصور والتماثيل ما دامت الخمر تعاطي الكأس حتى لكانها نار متقدة في داخله :

يَاطِينَا بِقُصُورِ الْقُفُصِ مُشْرِفَةً فِيهَا الدِّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطْرُدُ^(٣)
 لَمَّا أَحَدْنَا بِهَا الصَّهْبَاءَ صَافِيَةً كَأَنَّهَا النَّارُ وَسَطَ الْكَاسِ تَتَقَدُّ

حتى إذا مزج القوم خمرهم بالماء لكسر حدتها تولد الزبد ضاحكاً وهو يكلل الكأس :

وَالْأَرْبَعَاءُ كَسْرْنَا حَدَّ سَوْرَتِهَا وَالْكَاسُ يَضْحَكُ فِي تَيْجَانِهَا الزَّبْدُ^(٤)

وأما الكوب فإنه يضحك لعله أخرى هي أنه عند إفراغ ما فيه من خمر يكون في حالة أشبه

(٢) ديوان أبي نواس ص ٦٥ ط . الغزالي .

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٥٥ ط . الغزالي .

(٤) نفسه ونفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٩ .

بالركوع مع إحداث صوت مثل الفأفة ولهذا يبدو وكأنه يضحك :

والكوبُ يضحك كالغزال مسبحاً عند الركوع بلثغة الفأفأء^(١)

لا بل إنه يشبه ما يزدان به الكأس من حجاب عند المزج بزينة العروس على رأسها فتتكشف عندئذ كل ما ينطوي عليه الضمير من أسرار:

ترى كأسها عند المزاج كأنما نثرت عليها حلّي راسِ عروس^(٢)
فتهتِك استارَ الضمير من الحشا وتبدي من الأسرار كل حبيس

ودائماً للكأس في كف الساقى إشعاع الكوكب :

ترى الكأس في كف المدير كأنها على راحتيه كوكب الدبران^(٣)

وهذا مشهد خمري حافل فقد أدركت مغني مجلس الخمر الكأس الأخرى قبل أن يفرغ من الأولى فأشار إلى الساقى أن يسقيه باليمنى وهكذا تجمع في كفيه كأسان كانتا كالسراجين المشعين في محراب قس تهباً للصلاة والتلاوة :

حَبَبْنَا مُغْنِينَا عَلَى شُرْبِ كَأْسِهِ فَتَدْرِكُهُ كَأْسٌ وَفِي كَفِّهِ أُخْرَى^(٤)
فَأَمْسَكَ مَا فِي كَفِّهِ بِشِمَالِهِ وَأَوْمَأَ إِلَى السَّاقِي لِيَسْقِيهِ بِالْيُمْنَى
فَشَبَهْتُ كَأْسِيهِ بِكَفِّهِ إِذْ بَدَأَ سَرَاجَيْنِ فِي مِحْرَابِ قَسٍ إِذَا صَلَّى

ولأن معظم كؤوس أبي نواس زجاجية فإنها تحيل الليل إلى نهار لشدة لمعانها وإشعاعها :

ترى الكأس تسعَى بيننا فكأنما تردّد فيما بيننا بالأصائل^(٥)

وأما الفضية منها فلشدة لمعانها تبدو الخمر فيها كالسراج الوهاج فمن شرب منها الخمر فكأنه يشرب سراجاً :

وَعَقَارٍ كَأَنَّمَا نَتَعَاطَى فِي كُؤُوسِ الْجَجِينِ مِنْهَا سَرَاجًا^(٦)

وهي كاسات أشبه بسرج القس في محرابه :

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٩ .

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٠٤ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ١١٩ ط . الغزالي .

(٣) الدبران : منزل للقمر .

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٨٥ .

كَأَنَّ كَاسَاتِنَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ سُرُجٌ تَوَقَّدُ فِي مَحْرَابِ شَمَّاسٍ^(١)
 وليباض هذه الكؤوس الزجاجية تبدو إذا سكبت فيها الخمر كالعرائس وهي تختال في أزيائها
 الحمر حتى إذا مزجت الخمر بالماء جللتها صنوف الزينة والجمال من البدر وحب المرجان فتبدو
 الخمر في الكأس كأنها سماء تسطع فيها نجوم متألفة وأنيسها البدر قائم بينها:

كَانَ الزَّجَاجُ الْبَيْضَ مِنْهَا عَرَائِشُ عَلَيْهِنَّ بَيْنَ الشَّرْبِ أُرْدِيَةٌ حُمْرُ^(٢)
 إِذَا قَهَرَتْ بِالْمَاءِ رَاقٍ شِعَاءُهَا عَيُونَ النَّدَامَى وَاسْتَمَرَّ بِهَا الْأَمْرُ
 وَضَاءٌ مِنَ الْحَلَى الْمُضَاعَفِ فَوْقَهَا بَدُورٌ وَمَرْجَانٌ تَأَلَّفَهُ الشُّذْرُ
 كَانَ نَجُومَ اللَّيْلِ فِيهَا رَوَاكِدُ أَقْمَنَ عَلَى التَّأَلِيفِ أَنْسَهَا الْبَدْرُ

وقد بلغ من شدة عناية أبي نواس بالكؤوس أنه لا يكاد يترك منها جانباً إلا وقف عنده ومنها
 نسبتها وها هو يطلب إلى ساقيه أو خمّاره أن يصون خمره في آنية ذهبية المعدن مخروطية الشكل
 فارسية الصنع أو مما تخير كسرى لصيانة خمره:

فَصْنَهَا عَنِ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ وَهَاتِهَا فَأَنْتَكَ إِن لَمْ تَسْقِنِي مِثْ دُونَهَا^(٣)
 بَأَنِيَّةٍ مَخْرُوطَةٍ مِنْ زَبْرَجِدٍ تَخَيَّرَ كَسْرَى خَرَطَهَا لِيُصَوِّنَهَا

وهكذا كانت كؤوس أبي نواس الخمرية بما تحمل من صور وتمائيل فارسية ونصرانية تنم عن
 حياة مادية غنية بالماهي والمطاعم والمشارب:

فَاسْتَوْسَقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامَى وَأَجْرَاهَا عَلَيْنَا الْأَلْجِينُ وَالْغَرْبُ^(٤)
 أَقُولُ لَمَّا تَحَاكِيَا شَبَهًا أَيُّهُمَا لِلتَّشَابِهِ الذَّهَبُ
 هُمَا سَوَاءٌ وَفَرَقُ بَيْنَهُمَا إِنَّهُمَا جَامِدٌ وَمُنْسَكِبُ
 مُلْسٌ وَأَمْثَالُهَا مُحْفَرَةٌ صُورٌ فِيهَا الْقَسُوسُ وَالصُّلْبُ
 يَتَلَوْنَ أَنْجِيلَهُمْ وَفَوْقَهُمْ سَمَاءُ خَمْرٍ نَجُومُهَا الْحَبَبُ

أغرم أبو نواس في إبراز صور كسرى على كؤوس خمره منوهاً بزینتها وتصاويرها الفارسية كقوله
 في مقطوعته الشهيرة:

(١) ديوان أبي نواس ص ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٠ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٣٨ ط . الغزالي .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٥ ط . الغزالي .

تدار علينا الراح في عَسْجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِالْوَانِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ^(١)
 قرارتها كسرى وفي جنبَاتِهَا مهأ تَدْرِيبَهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
 فللخمر ما زُرَّتْ عَلَيْهِ جِيُوثُهَا وللماء ما دارتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

الخمر بكل أجوائها وأدواتها أقوى دليل على شعبية أبي نواس حضارية كانت أم عنصرية وهكذا صور كسرى في قرارة الكأس أو قاعها وهو تحف به عساكره وقد أشرعوا قسيهم من خلف الغزلان التي زينت صورها جنبات الكأس لاصطيادها وحين دارت هذه الكؤوس المزخرفة بالخمر الممزوجة بالماء على الشرب كان حد الخمر إلى موضع الجيوب من تلك الصور والماء إلى مواضع الرؤوس المغطاة بالقلانس .

ومرة أخرى يحتل كسرى قاعدة الكأس الذي يسميه أبو نواس بلفظه الفارسي «الطرجهار» وأما الجند فجميعهم تحت موضع ركاب كسرى، وحيولهم دون جواد كسرى وقد تسلحوا بالأعمدة وتدرعوا بالأقبية الفارسية القصار:

فحلُّ بَزَالِهَا فِي قَعْرِ كَأْسٍ محقِّرة الجوانب والقرار^(٢)
 مُصَوِّرةً بِصُورَةِ جُنْدِ كَسْرَى وكسرى في قرار الطَّرْجَهَارِ
 وجُلُّ الجندِ تحتِ رِكَابِ كَسْرَى بأعمدة وأقبية قصار

بل إن نزعتة الشعبية لتضح لنا حين يقرن تصاويره الفارسية بالأزراء بالوقوف بالأطلال من ذلك إشداته بكؤوسه المصنوعة من الذهب والمنقوشة بتصاوير بني بابلك محيقة بها كأنها النطاق حتى إذا ملئت تلك الكؤوس بالخمور بدت التصاوير وكأنها كتائب قد احتوتها لجة الماء فأغرقتها . ويختتم هذا الإعجاب بما لفارس من مآثر وفنون بالأزراء على شعراء العرب في نعتهم الرسوم الدارسة والأطلال البالية:

نُزُوجُ الخمرِ من المَاءِ فِي طاساتِ تَبْرِ خُمَرِهَا يَفْهَقُ^(٣)
 مُنْطَقَاتِ بِتصَاوِيرِ وَلَا تَسْمَعُ للدَّاعِي وَلَا تَنْطِقُ
 عَلَى تَمَائِيلِ بَنِي بَابِلِكِ مُحْتَفِرٌ مَا بَيْنَهُمْ خَنْدَقُ
 كَأَنَّهُم وَالخمرِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَتَائِبٌ فِي لَجَّةِ تَغْرُقُ

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٧ .

(٣) نفسه ص ١٥٧ ط . الغزالي .

فالنعتُ ذا لانعتُ دارِ خلَّتْ يهيمُ في أطلالِها أحمقُ

القصة في خمريات أبي نواس:

عرف الشعر العربي السرد القصصي والأسلوب الحوارى منذ أقدم عصوره، ففي أشعار امرئ القيس وعترة والمنخل الشكري وغيرهم من شعراء الجاهلية نماذج كثيرة من السرد والحوار. أما الأعشى فيعتبر زعيم القصة الخمرية في العصر الجاهلي، بل قبل عصر أبي نواس كله بلا منازع، وإذا كان الأعشى هو واضع أصول القصة الخمرية ومرسى قواعدها فإن أبا نواس هو الباعث لها من الركود الذي أصابها طيلة العصر الإسلامي والنافخ فيها نسمة الحياة من جديد كما لم يفعل أي شاعر آخر من قبل.

غير أن قصة الأعشى الخمرية كانت جزءاً من جملة فنون اشتملت عليها القصيدة التي غالباً ما كانت مديحاً في حين استقلت القصة الخمرية النواسية استقلال قصيدته الخمرية، بل إن قصصه الخمرية تعتبر قصائد خمرية من الطراز الرفيع لاحتوائها إلى جانب السرد والحوار على كثير من المعاني والموضوعات التي اشتملت عليها خمرياته الأخرى. إن قصص أبي نواس الخمرية تعج بالشخصيات التي يجمعها مع أبي نواس المشاركة الوجدانية من مثل: الساقى والخمار والنديم والمطرب والجارية والسمار... وفي تلك القصص كان أبو نواس يشكل دائماً الطرف الأول في الحوار والقطب المحرك للسرد القصصي وهكذا اتصفت خمرياته القصصية بالحوية والإثارة. على أن السرد أو الحوار شائع في كثير من خمرياته حتى التي منها لا تدخل تحت عداد القصص الخمرية من ذلك خمريته المشهورة:

ذكر الصبوح بسُحرة فارتاحا وأمله ديكُ الصبح صياحاً^(١)

وفيها يدور حوار بين أبي نواس وبين أحد ندمانه أو الخمار الذي ولج عليه حانته ليلاً ويطلب إليه النديم أن يبحث له عن المصباح، فيجيبه أبو نواس بأن يتمهل ففي ضوء الخمر غنى عن ضوئه:

وَخَدِينِ لَذَاتِ مَعَلَّلِ صَاحِبِ يَقْتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةً وَمُزَاحَا
نَبْهَتُهُ وَالسَّلِيلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ وَأَزْحَتُ عَنْهُ حُثَاثُهُ فَانَزَاحَا
قَالَ: ابْغِنِي الْمَصْبَاحَ: قَلْتُ لَهُ أَتَيْدُ حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْءُهَا مَصْبَاحَا

وفي خمرية أخرى قصيرة نراه يحاور خماراً مساوماً إياه بأسلوب طريف حتى ينتهي إلى معاقرة

(١) ديوان أبي نواس ص ١ ط. الغزالي.

الخمير والسُّكر. . ثم ما بعد السُّكر من «فساد بفساد»:

لما وردناها نلّمُ بشيخها
قلنا: «السلام عليك» قال عليكم
ما رمتُم؟ قلنا «المدام» فقال قد
عندي مُدامٌ قد تقادمَ عهدُها
فاكيلٌ؟ قلنا «بعد خُبرِ أننا
جئنا بها! فأتى بكأسٍ أشرقتُ
فأدارها عدداً ثلاثاً فانثنتُ
حتى إذا أخذتُ بوجنةٍ صاحبي
لم يرضَ ابليسُ الظريفُ فعألنا

عَلَجٌ يحدُّثُ عن مصانعِ عادٍ^(١)
مَنِي سَلامٌ تحيَّةٌ وودادٍ
وُفقتُم - يا إخوتي - لرشادٍ
عُصرتُ ولم يشعربها أجْدادي
لا نشتري سمكاً يبطن الوادي
منها الدجى وأضياء كل سوادٍ
منا النفوسُ وليس منها صادٍ
وفؤادِهِ وبِوَجنتي وفؤادي
حتى أعانَ فسادنا بفسادٍ!

وغير هذا ليس بالقليل في خمريات أبي نواس أما عن قصصه الخمرية فلا بد من القول باديء ذي بدء بأنه ليس من المتوقع أن تصادف قصة فنية بشروطها المعهودة من بداية ونهاية، وعقدة تدور عليها الوقائع والحوادث ثم لتنتهي بحل لها، لسبب بسيط هو أن الغاية التي كان يرمي إليها أبو نواس من وراء قصصه الخمرية هي تصوير مجالسه الخمرية بأكبر قدر من التأثير وهنا نحب أن نساءل، هل كان أبو نواس سيلجأ إلى الأسلوب القصصي في خمرياته لو لم يكن مسبوqاً إلى هذا الفن؟ الجواب عندي نعم، لكون أبي نواس إلى جانب استيعابه للتراث الشعري نظم في كل أبواب الشعر وفنونه فديوانه من هذه الجهة ربما كان أشمل ديوان شعر في زمانه هذا إلى غنى حياة أبي نواس الخمرية وحيويتها واتساع تجاربها وعمقها وما كانت تعج به من شخصيات ومواقف عديدة ومتباينة مما يجعلنا نؤكد أنه كان سيهتدي إلى الفن القصصي لأنه أكثر ملاءمة وشمولاً لمثل تلك الأجواء الخمرية الحافلة. . !!

هذا، وستتوقف عند نموذجين من خمرياته ربما كانا أكثر قصصه الخمرية احتفاءً بالعناصر القصصية وأغناها بالموضوعات الخمرية.

أما النموذج الأول فمغامرة ليلية إلى إحدى الحانات مع جماعة من الأصدقاء يسميهم أبو نواس «بفتيان صدق» وتقع هذه المغامرة في أربعة فصول أو أربع مراحل بداية من ولوج الحانة إلى غاية

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٨ ط. الغزالي .

أما المرحلة الأولى فتبدأ بطروق إحدى الحانات ليلاً على خمار «أحور ذمي» فيهب الخمار مذعوراً فيطمئنه أبو نواس بأنهم طلاب خمر فيزول خوف الخمار ويسرع إلى الباب ليفتحه وهو يطل عليهم بوجه كأنه البدر حتى إذا دخلوا تقدمهم مختالاً بجماله وهو يجر أذياله بردفه الثقيل وخصره النحيل.

وأحورَ ذميَّ طرقتُ فناءه
فلما قرعنا بابَه هبَّ خائفاً
وقال: «مَنْ الطراق ليلاً فناءنا؟»
فأطلقَ عن أبوابِه غير هائِبِ
ومرَّ أمامَ القومِ يسحبُ ذيلَهُ
بفتيانِ صدقٍ ما ترى منهم نُكرا^(١)
وبادر نحو الباب ممتلياً دُغراً
فقلتُ له: «افتح فتيةً طلبوا خَمراً
وأطلعَ من ازراهِ قمرأً بَدراً
يجاذِبُ منه الرَدْفُ في مشيهِ الخَصْراً

أما المرحلة الثانية فتبدأ بسؤال أبي نواس الخمار عن اسمه فيجيبه بأن أباه سمّاه «سابا» ولقبه «شمرا» عندئذ يستخف أبو نواس وصحبه الطرب لحلاوة الاسم ووقع اللقب فيطلبون خمرأ معتقة فيجيبهم الخمار بأن خمره سلخت من الزمان عشر سنين وهي محتجة في دنها، وعندئذ تدور مساومة ما بين أبي نواس وصحبه وبين الخمار وتنتهي بأن ينقد أبو نواس الخمار خمسة دنانير ذهبية مهراً للخمر فيقوم الخمار لإحضار الخمر ووجهه يطفح بالبشر:

فقلت له ما الاسم حُيِّتَ قال لي
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلت له جئناك نبتاع قهوةً
فقال أربعوا عندي التي تطلبونها
فقلت فماذا مهرها قال مهرها
فقلت له خذها وهات نعاطها
دعاني أبي سابا ولقبيني شَمراً
نُجِنٌ ولم نسطع لمنطقه صَبْراً
معتقةً قد أنفدت قدماً دَهْراً
قد احتجبت في خدرها حقباً عَشْراً
إليك فسُقنا نحو خمسة صُفْراً
فقام إليها قد تملَى بنا بشراً

وفي المرحلة الثالثة يحضر الخمار زق خمره «المسند» الذي كانت فيه الخمر مصونة كالقلب المصون في الصدر حتى إذا طعنه الخمار بأشفاه «بمثقه» تدفقت الخمر متألثة مثل تلالؤ ضوء البدر حتى إذا صب منها في الكأس فاح منها ريح كريح العطر:

(١) ديوان أبي نواس ص ١٢٤ ط. الغزالي.

فشك بأشفاء له بطن مُسنَدٍ وجاء بها وأليل مُلْتَقٍ سُدُولَه
 ربيبة خذِرِراضها الخِذْرُ أعصرا إذا أخذتها الكأس كادت بريحها
 فسالت تحاكي في تَلالُؤها البَدْرَا مُدلاً بأن وافى محيطاً بها خُبْرا
 فكانت له قلباً وكان لها صَدْرَا تخالُ بها عَطْرَا وما إن ترى عَطْرَا
 أما المرحلة الرابعة والأخيرة ففيها تقع معاقرة الخمر ومواقعة الخُمَار مع الإشادة بجماله والتنويه بمفاته بأسلوب صريح لا حاجة بنا للوقوف عنده:

وما زال يسقينا ويشربُ دائباً إلى أن تغنى حين مالت به سُكْرَا
 «فما ظبية ترعى مساقط روضةٍ كسا الواكفُ الغادي لها ورقاً خُضْرَا
 بأحسن منه منظرًا زانَ مخبراً بل الظبيُّ منه شابهَ الجيدَ والنُحْرَا»
 فيا حُسنه لحناً بدا من لسانه ويا حُسنه لحظاً ويا حسنه نُغْرَا
 ونام وما يدري أرضٌ وسأدهُ توسدَ سُكْرَا أم وساداً رأى جَهْرَا
 فقمنا إليه حين نامَ وأرعدت فرائضه تجري بميدانه ضَمْرَا
 فلما رأى أن ليس عن ذاك مخلص ووافقه لينُ أجاد لنا العَصْرَا

وبالتدقيق في هذا النموذج من القصة الخمرية نلاحظ خلوها من معنى القصة بمفهومها الفني فقد غلب عليها سرد الوقائع بداية من الرحلة حتى غاية السُكْر، ولذلك شاعت ألفاظ أو أفعال الحكاية والسرد في معظم مطالع الأبيات، مثل: فلما قرعنا الباب . . فأطلق عن أبوابه . . ومرامم القوم . . فشك بأشفاء . . وجاء بها والليل . . وما زال يسقينا . . إلخ، وألفاظ القول وما اشتق منه في مجال الحوار مثل: فقلت له ما الاسم . . ، فقلت له جئناك . . ، فقال أربعوا عندي . . إلخ .

هذا مع غلبة صيغة المتكلم مما يجعل أبا نواس هوزعيم «فتيان الصدق» الحاكي عن أفعالهم والمصور لأحاسيسهم وانفعالاتهم وهكذا كما كان هو باني القصيدة كان أيضاً المتحدث عن أحداثها ومحدثيها . . . !

أما النموذج الثاني الذي اخترناه من قصص أبي نواس الخمرية فقصيدة تعتبر من عيون خمرياته حتى سماها بعض الدارسين بالتائية الكبرى^(١) وتقع القصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتاً وهي

(١) ألحان الحان لعبد الرحمن صدقي ص ١٩ .

أوفى أداة فنية وأكمل أبعاداً وأدنى إلى مفهوم القصة من القصة الأولى . وقد صدرها أبو نواس بمقدمة يمتدح فيها أخوانه «فتية كمصاييح الدجى» مرتفعاً بهم إلى مستوى الأبطال مع صباحة الوجوه وكرم النجار والشجاعة والسؤدد والمروءة والأصالة في النسب والقدرة على التحكم بمصائرهم في إخضاعهم باللهو المتصل، الدهر لسطوتهم . والدهر هنا بمضمونه لا بزمانه، رمز لجملة ما يقهر الإنسان على إرادته ويخليه من سعاده وهو رمز لكل ما هو نقيض للهو من دين وأخلاق وواجبات، هؤلاء هم ندمان أبي نواس على خمر طيبة معتقة مجلوبة من تكريت أدركوها عند إحدى صواحب الحوانيت والليل متلاطم الأمواج بالظلام يضل به الملاح:

وفتية كمصاييح الدجا غرر
صألو على الدهر باللهو الذي وصلوا
دار الزمان بأفلاك السعود لهم
نادمتهم قرقف الإسفئط صافية
من اللواتي خطبناها على عجل
في فيلق للدجا كاليم ملتطم
شم الأنوف من الصيد المصاليث^(١)
فليس حبلم منه بمبئتوت
وعاج يحنو عليهم عاطف الليت
مشمولة سبيت من خمر تكريت
لما عجبنا برتات الحوانيت
طام يحار به من هوله السنوت

ثم تبدأ القصة الفعلية بحوار مع الخمارة الشمطاء الكافرة المتظاهرة بالتوقر والتي تعرف أبا نواس وصحبه بجودهم المفرط لتنعم باليسار وتغنم من بذلهم كما غنم داوود من أسلاب جالوت وإلا - يداعبها - فستمت إن هم انصرفوا عنها . وهكذا أبقتهم العجوز الشمطاء عندها حتى الصباح .

إذا بكافرة شمطاء قد برزت
قالت من القوم قلنا: من عرفتهم
حلوا بدارك مجتازين فاغتنيمي
فقد ظفرت بصفو العيش غانمة
فأحس بريحهم في ظل مكرمة
قالت فعندي الذي تبغون فانتظروا
في زبي مختشع لله زميت
من كل سمح بفرط الجود منعوت
بذل الكرام وقولي كيفما شيت
كغنم داود من أسلاب جالوت
حتى إذا ارتحلوا عن داركم موتي
عند الصباح فقلنا بل بها ايتي
ثم يأخذ أبو نواس في الحديث عن الخمر، لونها وقدمها . وهو يشبه الخمر بإشعاعها كالوهج

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٨ ط . الغزالي .

المتقد يرمي بالشرر كأنه اليواقيت لشدة ضيائه وبريقه كما رجمت الملائكة المردة من الشياطين بالنجوم .

وفي قدمها ينسها إلى عهد طالوت أحد ملوك بني إسرائيل حين ظلت محجوبة عن الأعين حتى أصابها الكبر وحل بها العنس وهي في دنها مدفونة في بطن تابوت . ويتمادى أبو نواس إلى الإشادة بكرم معدنها وطيب نكهتها وما يتولد عن المزج من أشكال وهو وصف وصفه بعض الدارسين^(١) بأنه تصوير بصري أو حرفي ، وصف يتساوى مع الظاهر:

هي الصباح تحيل الليل صفوتها إذا رمت بشرار كالسيواقيت
رمي الملائكة الرصّاد إذ رجمت في الليل بالنجم مراد العفاريت
فأقبلت كضياء الشمس نازعة في الكأس من بين دامي الخصر منكوت
قلنا لها: كم لها في الدن مذحجت كانت قد أخذت من عهد طالوت
كانت مخبأة في الدن قد عنست في الأرض مدفونة في بطن تابوت
فقد أتيتم بها من كنه معدنها فحاذروا أخذها في الكأس بالقوت
تهدّي إلى الشرب طيباً عند نكهتها كنفح مسك فتيق الفار مفتوت
كانها بزلال المزن إذ مزجت شبك در على ديباج ياقوت

ثم يتطرق إلى وصف مجلس الخمر الذي التأم في حدائق ملففة وفيه تواجهنا شخصية الساقى على نقيض من شخصية الخمارة الشمطاء وهو ساق باهر الجمال كالقمر، أحور العين كأنما اشتق منه هاروت سحره، كما تواجهنا شخصية المغني الذي يشارك الساقى في جماله حتى أنه شد إليه أنظار الندماء وهم مأخوذون بحسنه وكأنهم في تيه ويدل تواجد الساقى والمغني مع تباين دور كل منهما عن دور الآخر، إن المجلس الخمري قد توافرت له كل أسباب المتعة والانبساط . وقد شاركت الطبيعة التي كانت الإطار العام الجميل لكل عناصر المجلس بنصيبها في هذا المجلس الحافل، ويبدو من الوصف للحديقة أنها عباسية الانتماء بحضارتها العمرانية:

يديرها قمر في طرفه حور كأنما اشتق منه سحر هاروت
وعندنا ضارب يشدو فيطربنا يا دار هندي بذات الجرع حيت
إليه الحاظنا تثنى اعنتها فلو ترانا إليه كالمباهيت

(١) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب ص ٢٤٣ ، والقصيدة العباسية «قضايا واتجاهات» ص ١٧٣ .

منن أهل هيت سخي الجرم ذي أدب
 فينبري بفصيح اللحن عن نغم
 حتى إذا فلك الأوتار دار بنا
 فزنا بها في حديقات ملففة
 تلهيك أطيارها عن كل ملهية
 لم يثنيني اللهو عن غشيان موردها
 له أقول مزاحاً هات ياهيتي
 مثقفات فصيحات بتثبيت
 مع الطبول ظللنا كالسبابيت
 بالزئد والطلح والرمان والتوت
 إذا ترنم في ترجيع تصويت
 ولم أكن عن دواعيها بصميت

أما ختام القصيدة فقد جاء غريباً في بابه وذلك حين أخذ أبو نواس يندب سوء حظه عند الغواني بعد أن علت كبره نادماً على تفریطه في حق نفسه وغفلته عن النهوض بواجب الصلاة في مواعيدها الموقوتة راجياً عفو الله كما عفا عن يونس بن متى صاحب الحوت:

حتى إذا الشيب فاجاني بطلعته
 عند الغواني إذا أبصرن طلعتة
 فقد ندمت على ما كان من خطل
 أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما
 أقبح بطلعة شيب غير مبخوت
 آذن بالصرْم من ودّ وتشتيت
 ومن إضاعة مكتوب المواقيت
 عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت

بعد عرضنا لهذه القصة الخمرية نستطيع أن نتوقف عند جملة من الملاحظات أولاً أن هذه القصة أغنى من سابقتها بالفن القصصي بالرغم من مقدمتها التمهيدية التي لم تكن ضرورية والخاتمة التي جاءت على غير النهج العام للقصيدة أو القصة. وفي الوقت الذي غلب ضمير الجماعة من متكلمين أو غائبين أو مخاطبين على ركني السرد والحوار قل قلة واضحة ورود ضمير المفرد في صيغة الغائب أو المتكلم اللهم إلا في ختام القصيدة حين اتجه بها أبو نواس إلى ندب سوء حظه.

أما الحبكة القصصية فقد كانت واضحة رغم إضعاف المقدمة والخاتمة للتواصل المستمر بين البداية والنهاية ومع هذا فقد ظل الشاعر يتنقل بنا من صورة إلى أخرى في تناسق وترابط في الحدود والهيكل المألوفة لمجالس الخمر، كذلك أعطى الشاعر لكل عنصر من عناصر المجلس دوره وأول هذه العناصر الخمر نفسها. وكان مشهد كل من الساقى والمطرب متواصلين على الطريقة النواسية، كل هذا من خلال لغة غير معقدة وتعابير خالية من الغموض أو الإبهام أو الألغاز. كذلك تجلت براعة الشاعر في حسن استغلاله للقصص الديني وهو عنصر جديد أثرى القصيدة والقصة بالمعاني

والصور التاريخية وقد بلغت شدة الترابط بين أبيات المشهد الواحد من مشاهد القصيدة المتعددة درجة من الكمال لا نستطيع فيها أن نقدم أو نؤخر بيتاً على آخر دون خلل واضح في نظامها.

وأخيراً لا آخراً هذا التكافؤ بين عناصر القصة من قينة وخمارة وساق ومطرب فيما كان يضطلع كل واحد منهم من دور، ولولا تفرد الشاعر بدور الاستغفار والشكوى في ختام القصيدة لكان أحد عناصرها الذي يكافئ دوره دور أي عنصر من عناصرها.

على أن الحقيقة، أن تفوق أبي نواس في فن الخمر وتفرد فيه لا يظهران لنا إلا عند مقارنة خمرياته بخمريات معاصريه في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الجزء، وعندئذ سنرى أن أبا نواس ما يزال حتى اليوم شاعر الخمر الأول في أدبنا العربي، وذلك لما ابتكر من مستجدات توج بها محاولاته الجادة من أجل تطوير فنونه الشعرية سواء ما كان منها مسبقاً إليه أو ما كان مبتدعاً فيه، مما جعله يقف على رأس المجددين في عصره بدون منازع، فنحن نلمح في كل جانب من جوانب شعره، خمرة وغير خمرة، شواهد تجديدية، وظواهر مستحدثة يستطيع دارس أبي نواس أن يقع عليها من دون أن يلجأ إلى المحاكاة أو المقارنة. فالشواهد الماثلة والظواهر البينة أدل على ما نقول من أية قرينة أخرى.